هل كان شمسُ تبريزي إسماعيليّا؟

خالد محمد عبده(*)

تعبّر كلمة الباحث والمترجم محمد علي موحدّ بصدق عن عدم التفات الدراسات العربية المعاصرة إلى شخصية شمس تبريزي، على الرغم من الشهرة التي تحققت للرّومي وشمس باجتماعهما معًا، فلم يُعرف الرومي قبل شمس إلاّ شيخًا وواعظًا متابعًا للتقليد الصوفي في عصره، متأدّبًا على نهج الصوفية السابقين، متلقّيًا العلم كأبناء عصره، دارسًا للشريعة، مربّيًا للمريدين. كذلك لا نعرف عن شمس سوى النزر اليسير قبل لقائه بالرومي، وعثوره على ما كان يبحث عنه؛ إذ (كان المطلوب لستة عشر عامًا ينظر في وجه المحبوب، فأدرك الطالب بعد خمسة عشر عامًا أنه جديرٌ بالاهتمام)[1].

(*) باحث مصري متخصص في الإسلاميات والتصوف ومدير طواسين للتصوف والإسلاميات.

(1) مقالات شمس تبريزي، ص763، نقلاً عن فرانكلين لويس، الرومي ماضيًا وحاضرًا، شرقًا وغربًا- حياة جلال الدين الرومي وتعاليمه وشعره، ترجمة عيسى علي العاكوب، نشرة وزارة الثقافة، دمشق، 2010، ص342.

120.indd 307 1/8/17 12:50 PM

ولا ريب أن قلّة المعلومات عن شمسٍ كانت سببًا فيما اكتنف تلك الشخصية من غموض وإبهام؛ مما جعل الدارسين يخلطون بين شخصيات عدّة تحمل الاسم نفسه، وينظر إليها بعين التقديس من قِبل المحبين، فصار شمس مرة صوفيًّا ومرة إسماعيلي المذهب والعقيدة، مستترًا ممارسًا للتقية، ومرةً سنّيًا شافعيًا، ومرة يُذكر باعتباره أنموذجًا للتحول المذهبي، وتغيب ملامح الشخصية وسط هذا الكمّ من التخمين.

سنتناول في هذه الورقة حقيقة شمس تبريزي ومذهبه، وتدخل هذه المسألة ضمن اهتمام الباحث بالتلقّي العربي للرومي والمولوية، كما كانت المدرسة المصرية تفعل في بدايات القرن المنصرم، وتابعها في عملها أساتذة أجلاء من سوريا والعراق والأردن وغيرها من البلدان العربية.

ولأن الدرس الغربي المبكر صوّر شمسًا في صورة أسطورية، اعتمادًا على بعض المعلومات الواردة عند أفلاكي وجامي، رأيت أن أعرض لآراء طائفة من المستشرقين، ومن هنا تمر الدراسة على رأي نيكلسون وبراون ووليم تشيتيك وفرهاد دفتري وغيرهم. ثم تختار أنموذجًا لمن كتبوا عن شمس بالفارسية العلامة فروزانفر المحقق لأعمال الرومي، وعطاء الله تدين، من المعاصرين ممن تلقى كتبهم رواجًا في إيران وتحمل نزعة قومية ظاهرة، وتلا هذا الأنموذج الذي يتبنى المذهب الشيعي، أنموذج لمقاربة أخرى تناولت الرومي والمولوية مرتكزة على الخلفية السياسية والأيديولوجية من جهة، وعلى العلم الحديث من جهة أخرى، وهي مقاربة العراقية إحسان الملائكة، ثم ناقشت رأي الإسماعيليين العرب في شمس تبريزي.

شمس تبريزي في مرآة الدرس الاستشراقي

مَنْ ذلك الرجل الذي تولّى تغييرَ الروميّ تغييرًا تامًّا؟

ليس لدينا الكثير الذي نعرفه عنه، والحكايات التي حيكت حوله تظهره كشخصية قويّة جدًا وعلى قدر هائلٍ من الاعتداد الرّوحي؛ وقد طوّف في بلدان الشرق

120.indd 308 1/8/17 12:50 PM

الأدنى بحثًا عن شيخ. ولم يستطع أحدٌ، من صوفية ذلك الزمان، أن يكون في نجوة من نقده اللّاذع. ويذكر هو نفسه في «مقالاته» أنه كان في وقت من الأوقات مريدًا لشيخ كان قد انصرف عنه أخيرًا: (كان فيَّ شيء لم يبصره شيخي، وعلى الحقيقة لم يرَه أحد قط؛ لكن سيدي مولانا رآه)[2].

تلخّص كلمة المؤرخ التركي عبدالباقي كَلبينارلي للرومي والمولوية ما يعانيه الباحث حول هذه الشخصية من ندرة المعلومات عن شمس؛ وتطوافه وانتقاله في بلدان العالم الإسلامي، وقلقه واضطرابه، ونقده اللاذع للفقهاء والصوفية والعلماء السابقين، وتوقه للحصول على ما يشبع روحه الطامحة لعرفان وتصوف يختلف عما هو سائد في عصره.

وقد نبّهت المستشرقة الألمانية أنّا ماري شيمل في آخر دراساتها «الشمس المنتصرة: دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي»[3] من مغبة الخلط بين (شمسين)؛ إذ يعرف أهل الهند شخصاً آخر بالاسم نفسه ينتسب إلى الطائفة الإسماعيلية، فيرتبط جلال الدين الرومي وشيخه الروحي شمس الدين التبريزي بتقليد روحيّ آخر: في مدينة مُلْتان، ضريحُ شخصٍ اسمه شمس تبريزي هو مزارٌ للمؤمنين. وفي أيّ حال، ينتمي البناء البسيط المزخرف بالآجر الأزرق والأبيض مع سَرْوٍ زيني إلى المبشّر الإسماعيلي الشهير (شمس تبريزي) بمرتبة أحد الشيوخ الخمسة «بنج بيري» [بالفارسية]، وهم مجموعة من خمسة أولياء ظلّوا زمنًا طويلاً محلّ توقير كبير في أجزاء من الهند خصوصاً في وادي السند. ويعرفُ أدبُ السّندِ، الذي يخلط دائمًا بين معشوق الرومي والمبلّغ الإسماعيلي أساطير كثيرة حول شمس تبريزي[4]. لكنها تقطع بأنه على أية حال لا يمكن اعتبار شمس الإسماعيلي هو

---

(2) Gölpinarli, Mevlana, p 48

(3) لاقت كتابات المستشرقة الألمانية أنّا ماري شيمل عن التصوف الإسلامي عناية من الأكاديمي والأديب والمترجم السوري عيسى علي العاكوب، فمحاضراتها التي كتبتها عن الأبعاد الصوفية في الإسلام، وألقتها على طلاّبها في هارفارد باللغة الإنجليزية، وأهدتها إلى أولياء شيراز، رأى العاكوب ضرورة نقلها، فعل ذلك مفتونًا بمدى موسوعية شيمل واطلاعها الوافر على جغرافية الشعراء وخريطة العالم الإسلامي الروحي، وكما اهتم بهذا العمل اهتم بعملها الضخم عن الرومي «الشمس المنتصرة أو الشمس الظافرة» وعكف على نقله إلى العربية استمرارًا لخطته المعرفية في نشر (الأدب المؤدّب) كما يتجلى في تراث الرومي.

(4) راجع: أنا ماري، شيمل، الشمس المنتصرة، دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي، ترجمه عن الإنجليزية، وقدّم

120.indd 309 1/8/17 12:50 PM

(شمس الرّومي).

يصف المستشرق الإنجليزي رينولد ألين نيكلسون (1868–1945) [5] شمس تبريزي من خلال مطالعاته الأولى في ديوان شمس للرومي، بأنه شخصية غامضة تتدثّر بلبّاد أسود خشن، تضوي لحظة قصيرة على مسرح الحياة ثم تختفي فجأة وفي سرعة فائقة، والمعلومة التي من خلالها يرتبط اسم شمس بالإسماعيلية، هي التي ترد على لسان نيكلسون بصيغة المبني للمجهول! يُقال: إنه من أبناء (جلال الدين) المُلقّب بلقبِ (نو مسلمان = المسلم الجديد) الذي كان زعيمًا للحشاشين. ويضيف نيكلسون قائلاً: «إنه كان إلى حدّ ما أميًّا، ولكنه امتاز بحماسٍ روحيٍّ شديد، مصدره الفكرة التي استولت عليه فجعلته يتخيل أنه مبعوث العناية الإلهية، وقد استطاع بواسطة ذلك أن يسيطر على كلّ من قدم عليه أو دخل في مجلسه. وهو من هذه الناحية، ومن نواحٍ أخرى تتصل بحبّه المتّقد، وفقره المدقع، وموته العنيف، شبيه كل المشابهة بالفيلسوفٍ (سقراط)، فكلاهما استطاع أن يفرض نفسه على أذكياء الناس بقدرته على تصوير أفكارهم البسيطة في تعبير فنيٍّ رائع، وكلاهما استطاع أن يكشف لنا عن خطل العلوم الظاهرة، وعن شدة حاجتنا إلى التثقيف والتنوّر وعن قيمة الحب في حياتنا، وأن الانفعالات الشاردة والتحديات الجاهلة للقوانين الإنسانية، إنما تؤدي إلى فقد (الاتزان العقلي) و(السمو الأخلاقي) اللذين هما

له وراجع مادته الفارسية الدكتور عيسى علي العاكوب، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والارشاد الإسلامي، 1421 هـ، ص605–606.

(5) يرى عبدالرحمن بدوي أن أعظم أعمال نيكلسون هو من غير شك نشره لكتاب (المثنوي المعنوي) للشاعر الفارسي الأكبر مولانا جلال الدين الرومي، إذ ترجمه نيكلسون وشرحه وعلّق عليه في (8) مجلدات في الفترة (1925–1940) ونُشر ضمن سلسلة جب التذكارية. وكانت هذه النشرة أول ترجمة إلى اللغة الإنجليزية مع التعليقات الملحقة بها. وبالفعل، فقد خصّ نيكلسون مولانا جلال الدين الرومي وكتاباته بعناية واهتمام كبيرين، وتم نشر عمله في إيران مرّات عدّة، وقام حسن لاهوتي بترجمة تعليقات نيكلسون إلى الفارسية سنة 1995. وفي 1924، قام نيكلسون بنشر الكتاب النثري لمولانا (فيه ما فيه). ومن أهم ترجمات نيكلسون أيضًا لكتابات مولانا جلال الدين الرومي ترجمته الشهيرة لديوان شمس تبريزي (Selected Poems from the Divani Shamsi Tabriz). وفي 1931، أخرج نيكلسون في مجلدتين ترجمة إنجليزية لمجموعة من قصص المثنوي مع بعض القصائد الأخرى. راجع في هذا الشأن –على سبيل المثال–: عبدالرحمن، بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص593. ونجيب، العقيقي (المستشرقون) ص525 وما بعدها، ط5، دار المعارف، القاهرة. ومقال عبدالوهاب، عزام في مجلة الثقافة، العدد (365)، في تأبين نيكلسون. و(محمد والقرآن في رأي المستشرق الإنجليزي نيكلسون) مجلة الأزهر، مج (32)، ربيع الأول وربيع الثاني 1380هـ، ج 3و4، ص352–356، ومقال أبي العلا عفيفي في مجلة الثقافة، 14 جماديالأولى 1365هـ، العدد (381).

120.indd 310 1/8/17 12:50 PM

مقياس التمييز بين الحكيم والمريد»[6].

ويكتفي براون[7] بإيراد ما كتبه نيكلسون باقتضاب عن شمس وتاريخه ما قبل لقائه بالرومي، ولا نعثر في (تاريخ الأدب) على تعليق حول صحة هذه المعلومة التي تجعل من شمس إسماعيليًّا. والمصدر المعتمد عند براون في الحديث عن شمس ما بعد لقائه بالرومي هو الأفلاكي[8].

لا يقدّم وليم تشيتيك (William C. Chittick)[9] في كتابه الذي ترجم فيه إلى الإنجليزية قدرًا كبيرًا من المقالات معلومات تاريخية عن شمس[10]، لكنه يرى في مقال له أن: اسم شمس يألفه قليلٌ من الذين سمعوا عن جلال الدين الرومي، ونادرًا ما تكون معرفتهم صحيحة ودقيقة. فمعلوماتهم عنه تنحصر في وصوله إلى قونية، ومقابلته للرومي، وما أدّت إليه هذه المقابلة من تغيير حال الرومي رأسًا على عقب (...) وبذلك يكون شمس قد لعب دورًا غير مباشرٍ في التاريخ الإسلامي. ومن

---

(6) راجع: إدوارد، براون، تاريخ الأدب في إيران، الكتاب الثاني، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي، نشرة المركز القومي للترجمة، القاهرة 2005، ص654-657.

(7) إدوارد غرنفيل براون من أبرز المتخصّصين في الأدب الفارسي، وكتابه «تاريخ الأدب في إيران» من أفضل ما كُتب في بابه. سافر براون عام 1887 إلى إيران وقضى عاماً بين الفرس كما يقول عنوان كتابه الذي سجل فيه ذكرياته، ويعلّق الأستاذ عبدالرحمن بدوي (1917-2002) على الكتاب قائلاً: «ومن هذا الكتاب يُستَشَفّ نفوذُه في فهم العقلية الفارسية وحماستُه للأدب والحضارة الفارسيين، كما نكتشف اتجاهات فكره المقبلة فهو لم يهتم بالفارسية بوصفها لغة، بقدر ما اهتم بها بوصفها أداة تحمل أفكار فارس وحضارتها»، راجع عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص51-53.

(8) اشتهر الأفلاكي بكتابه (مناقب العارفين) وهو الكتاب السيري الأكثر طولاً وتفصيلاً في كل ما يتعلق بسيرة الرومي وآبائه الروحيين وتلاميذه ومريديه، وعلى الرغم من أنه يقدّم معلومات مفصلة عن أشياء كثيرة في كتابه، فإن الأفلاكي تظلّ جوانب كثيرة من حياته غير معروفة عند المحققين والمؤرخين، فحسب ثاقب دده نعرف أن اسم الأفلاكي أحمد آهي ناطور، تتلمذ لبدر الدين تبريزي، وله سياحات ورحلات قطعها في سبيل تحصيل العلم، ويُقال إن أباه كان يروي مناقب بهاء الدين ولد سلطان العلماء ووالد حضرة مولانا جلال الدين. راجع: فرانكلين لويس، Rumi – Past and Present, East and West- The Life, Teachings, and Poetry of Jalâl al-Din Rumi-، الرومي ماضيًا وحاضرًا، شرقًا وغربًا- حياة جلال الدين الرومي وتعاليمه وشعره، ترجمة عيسى علي العاكوب، نشرة وزارة الثقافة، دمشق، 2010، ص492-512.

(9) حصل وليم تشيتيك على الدكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها تحت إشراف العلامة سيد حسين نصر، وخلال فترة إقامته في إيران درس على يد مشاهير العلماء الإيرانيين، من أمثال جلال الدين أشتياني، وغلام رضا أعواني، والعلامة سيد حسين طباطبائي، وتغطّي أبحاث تشيتيك مجالات واسعة من الدراسات الدينية المقارنة إضافة إلى دراساته الصوفية المهمة، كدراسته عن ابن عربي، ودراساته عن الرومي وترجماته لنصوص العرفان الفارسي، راجع: مقدمة ناصر ضميرية التي ضمّنها نبذة تعريفية عن تشيتيك في ترجمته المنشورة (محيي الدين بن عربي، وارث الأنبياء) نشرة دار نينوى، سورية، 2015، ص11-14.

(10) راجع:

William C. Chittick, «Me and Rumi- The Autobiography of Shams-i Tabrizi,» 2004.

120.indd 311 1/8/17 12:50 PM

هذه النقطة ينطلق سيد حسين نصر[11] بدراسته حول كتابات الرومي، التي بدأها الرومي بعد لقائه بشمس وحتى آخر عمره، كتب نصر يقول: «لم يكن شمس مجرد معلّم صوفي للرومي. فجلال الدين بالتأكيد قد درس التصوف لسنوات عديدة قبل لقائه به، لكن يبدو أن شمسًا هو الرسول الإلهي الذي أظهر الحالة الروحية للرومي بهيئتها الشعرية»[12].

وقد نوّه أيضاً فرانكلين لويس إلى هذا الخلط في الأمر، قائلاً: صوّرت الأسطورة شمساً فاتناً للجماهير، ساذجاً، جوّالاً ممتلكاً طاقات خارقة، اختار الرومي اسمه ليكون بؤرة تدينه ابتغاء اختبار مريديه وتقديم شخصية أدبية لغزلياته. وهذه النظرة منعكسة في آثار جامي ودولتشاه، وإلى حد ما الأفلاكي. وقد عكس الدرس الغربي المبكر هذه النظرة (الأسطورية المتأخرة) إلى شمس، إذ اعتقد براون أنّ شمساً كان الابن لجلال الدين نُو مُسلمان الذي قضى على فرقة الحشاشين[13].

يستفاد من أخبار شمس التي يوردها فرانكلين[14] من خلال اعتماده على (مقالات شمس والأفلاكي) -بالدرجة الأولى- أن شمسًا لم يكن متعصّباً لمذهب من المذاهب الفقهية، فهو وإن تعلّم الفقه الشافعي وصار شافعي المذهب، كان يقول إنه لن يسمح لانتمائه إلى المذهب الشافعي بأن يقف في طريق قبوله الأشياء النافعة في أعمال أبي حنيفة. كان شمسُ شافعيًّا إذن -حسب المقالات- قارئًا على نطاق واسع

(11) سيد حسين نصر مفكّر إيراني، وأستاذ زائر في الجامعات الغربية: هارفارد وبرنستون وغيرهما. له أكثر من (25) كتاباً وأكثر من (500) مقالة باللغات الفارسية والإنجليزية والعربية والفرنسية، وقد ترجمت مؤلفاته إلى عديد من اللغات، مثل الألمانية والإسبانية والعربية وغيرها من اللغات، وقد صدر حول سيرته العلمية كتاب تجاوز الألف صفحة ضمن سلسلة كبار فلاسفة التاريخ المعاصر (Li-brary of Living Philosophers) انظر: تأملات في الإسلام والفكر الحديث، مقال منشور على موقع طواسين، على الرابط التالي: http-//tawaseen.com/?p=2091

(12) انظر: مقال وليم تشيتيك، حقيقة شمس تبريزي، ترجمة شيماء ملا يوسف، موقع طواسين، على الرابط التالي: http-//tawaseen.com/?p=1953

(13) راجع: فرانكلين، الرومي ماضياً وحاضراً، ص294.

(14) عام 1995 فازت رسالة فرانكلين د. لويس عن الشاعر الفارسي سنائي الغزنوي (من آباء الرومي الروحيين) بجائزة السنة لأفضل رسالة دكتوراه من مؤسسة الدراسات الإيرانية، ويعمل فرانكلين حاليًا أستاذًا للّغة الفارسية في قسم دراسات الشرق الأوسط وجنوبي آسيا في جامعة إموري في أطلنطا (أمريكا). عام 1996 بدأ العمل بالبحث المضني الذي اكتمل بمؤلفه (الرومي ماضياً وحاضراً، شرقاً وغرباً- حياة جلال الدين الرومي وتعاليمه وشعره) الذي نُشر ليلقي تصفيقًا نقديًّا من كل الأكاديميين والقراء العاديين. ويصبح مرجعًا أساسيًا يعتمد عليه الباحثون من أمثال: ليلي أنفار (Leïli Anvar) في كتابها (Rûmi-La religion de l'Amour) (الرومي: دين الحب).

120.indd 312 1/8/17 12:50 PM

في المتون الفقهية الأساسية، وهو يذكر تحديدًا واحدًا من المتون الفقهية الشافعية الرئيسة الخمسة كتاب (التنبيه في فروع الشافعية) لأبي إسحاق الشيرازي (تُوفي 1083) في حين كان الرومي حنفي المذهب.

إضافة إلى تأكيد المقالات شافعية شمس تبريزي، هناك ما يشير لاعتناقه مذهب السّنة، وتحديدًا الأشعرية، ورفضه مذهب المعتزلة، ويدعم القول التالي هذا الترجيح: «هذا المذهبُ للسُّنةِ أقربُ إلى الأمر من مذهب المعتزلة؛ فذلك أقربُ إلى الفلسفة؛ من حفر بئرًا لأخيه وقع فيه»[15].

شمس في الدّراسات الإسماعيلية

أريد شخصًا من جنسي لكي أجعله قبلة، وأتوجّه إليه لأنني قد مللت من نفسي. فهل تفهم ما أعنيه عندما أقول: إنني مللتُ من نفسي؟ والآن عندما جعلته قبلة (أي الرومي) يفهم ويدرك ما أقوله[16].

يؤكد فرهاد دفتري[17] في دراساته الإسماعيلية أن شمس الدين بن محمد بن ركن الدين خورشاه (ت. 655هـ/1257) آخر حاكم لألموت وولي عهده المنصوص عليه، قرنته الروايات الإسماعيلية الأسطورية بشمس تبريزي المرشد الروحي للشاعر الصوفي العظيم جلال الدين الرومي، ويخبرنا بأن هذه الشخصية الإسماعيلية قد عاشت بصورة سرية في هيئة نقّاش؛ ومن هنا جاء اللقب الذي عُرف به وهو (زردوزر)، وبوفاة شمس الدين محمد حوالي (710هـ/1310) حدث نزاعٌ بين أولاده على خلافته، وكانت النتيجة أن انقسمت الإمامة والجماعة الإسماعيلية

(15) مقالات شمس تبريزي، ص740، نقلاً عن فرانكلين، ص411.

(16) مقالات شمس تبريزي 2/162، نقلاً عن عطاء الله تديّن، ص348. وقارن فرانكلين، ص329.

(17) تلقّى فرهارد دفتري تعليمه في إيران وأوروبا وأمريكا، حيث حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا في بيركلي عام 1971. وشغل مناصب أكاديمية مختلفة ثم ارتبط، منذ عام 1988، بمعهد الدراسات الإسماعيلية ويعدّ اليوم المرجعية البارزة في الدراسات الإسماعيلية، راجع عنه: عمر علي-دي- أونثاغا، قلاعُ العقل دراسات إسماعيلية وإسلامية تكريمًا لفرهاد دفتري، ترجمة: سيف الدين القصير، دار الساقي، بيروت، 2014، ص15-55.

120.indd 313 1/8/17 12:50 PM

النزارية إلى فرعي القاسمشاهية والمؤمنشاهية المتنافسين[18]. وربما كان تطور العلاقات الصوفية- الإسماعيلية في بلاد فارس سببًا في هذا الخلط، فقد تطورت هذه العلاقات إلى درجة من التمازج والاتحاد بين الصوفية الفارسية والنزارية الإسماعيلية، وهذا ما يفسّر نظرة الإسماعيليين النزاريين الناطقين بالفارسية إلى كبار شعراء المتصوفة في فارس، كفريد الدين العطّار وسنائي الغزنوي وجلال الدين الرومي وغيرهم.

ويواصل الإسماعيليون النزاريون في فارس وأفغانستان وآسيا الوسطى استخدام قصائد شعرية لهؤلاء الشعراء وغيرهم من المتصوفة في العالم الإيراني في احتفالاتهم الدينية، يُضاف إلى ذلك أن النزاريين الفرس سرعان ما تبنّوا المظاهر البارزة في الحياة الصوفية. وظهر الأئمة للغرباء بصورة الشيخ الصوفي أو البير (= شيخ) بينما تبنّى الأتباع التسمية الصوفية النموذجية (المريد)[19].

احتجاب الشَّمس

عام 2007 انتهى شفيق ن. فيراني من تأليف كتابه (صراع البقاء: الإسماعيليون في العصور الوسطى)، وفي هذا الكتاب يخصص فصلاً للحديث عن الإمام الإسماعيلي شمس الدين محمد، ويفسح مجالاً لمحاولة تبديد الظلال الكثيفة التي تحيط بشخصية شمس، معتمدًا على جملة من المصادر الإسماعيلية والدراسات الحديثة التي كُتبت حول (شمس تبريزي) كمقالة المستشرق الروسي المتخصص في الدراسات الإسماعيلية فلاديمير إيفانوف (Vladimir Ivanov)، وغيره من المستشرقين، وإذا كان الدرس الاستشراقي المبكّر -كما رأينا- تبنّى وجهة النظر التي تعتبر شمس تبريزي معلم الرومي أحد الأئمة الإسماعيليين، فكما رأينا، فإن الدرس المعاصر أيضًا لم يدقق في هذه النسبة أو يمنحها مزيدًا من الاهتمام، مما يجعل

(18) راجع: فرهاد دفتري، العلاقات الإسماعيلية الصوفية في فارس في عصر ما بعد ألموت، ضمن كتاب «الإسماعيليون في مجتمعات العصر الوسيط الإسلامية»، ترجمة: سيف الدين القصير، دار الساقي، بيروت، 2008. وقارن بـ «الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم» لدفتري، ترجمة: سيف الدين القصير، دار الساقي، بيروت، 2012، ص692-694.

(19) راجع: فرهاد، دفتري، معجم التاريخ الإسماعيلي، ترجمة: سيف الدين القصير، دار الساقي، بيروت، 2016، ص 56-57.

120.indd 314 1/8/17 12:50 PM

معالجة فيراني ذات أهمية كبيرة، لذا سنعرض هنا لكيفية معالجته، وإلام انتهى في أمر هذه النسبة.

طبقًا لكتاب الآثار المحمدية، وهو مصدرٌ متأخرٌ جدًّا أتمّه مؤلفه محمد تقي الدين بن علي رضا بن زين العابدين، في مدينة محلات، تم إرسال شمس الدين محمد إلى تبريز برفقة أبيه شاهنشاه، ومارس شمسٌ في تلك المدينة مهنة متواضعة فعمل فيها طرّازًا، ومن هنا كان لقبه (زاردوز) أي الطرَّاز.

ويجزم محمد قاسم (فيرشتا) المؤرخ المعروف من جنوبي الهند، والذي كان على اتصال -كما يبدو- مع أحفاد للإمام شمس الدين محمد، وكتب حوالي عام 1015هـ/1606، يجزم أن ابن ركن الدين خورشاه كان معروفًا باسم محمد زاردوز، ولقبه شمس الدين[20].

يرى فيراني، بناء على قراءة ما يرد في هذه المصادر الإسماعيلية، أن إقامة شمس الدين محمد في تبريز قد تسببت في أن عددًا من المؤلفين راحوا يخلطون ما بين مسيرة الإمام الإسماعيلي؛ وسيرة ابن بلدته وشبه المعاصر له شمس تبريزي، المؤدِّب الروحي للرومي، والذي اشترك مع الإمام في الاسم أيضًا. أول ما ظهر هذا الالتباس في تذكرة الشعراء لدولت شاه (انتهى من تألفيه عام 892هـ/1487)، وكذلك فعل نور الله شوشتري (ت. 1091هـ/1610)، في كتابه مجالس المؤمنين، الذي جعل شمس تبريزي مؤدب الرومي من ذرية الإسماعيليين.

بعض المصادر الإسماعيلية كرسالة «خير خواه» تجعل من مولانا جلال الدين الرومي حجة للإمام الإسماعيلي شمس الدين محمد؛ وتحتفظ باقتباسات شعرية من أعمال الرومي كما يُفترض ذلك، وفي حين نعثر على شواهد لهذه الأشعار في أعمال الرومي، فإن مصدرًا إسماعيليًّا كرسالة «الصراط المستقيم» تنسب أبياتًا

(20) راجع: شفيق ن. فيراني، صراع البقاء: الإسماعيليون في العصور الوسطى، ترجمة: سيف الدين القصير، دار الساقي، بيروت، 2014، ص87-88.

120.indd 315 1/8/17 12:50 PM

للرومي لا نجدها في أعماله المعروفة كالمثنوي والديوان[21].

تنفي مصادر إسماعيلية أخرى بشدة الربط بين شمس تبريزي الإسماعيلي ومؤدب الرومي، فالشيخ شهاب الدين شاه (ت. 1884/1302) يكتب على سبيل المثال: «أيها المشايعون للحقيقة! اعلموا أنه بعد وفاة ركن الدين خورشاه، وصل جدّنا، كما ذكرت، شمس الدين محمد إلى تبريز واستقرّ فيها. وكي لا تصل معلومات حول وضعيته إلى أعدائه، ذهب إلى محل طرّاز وشغل نفسه بتلك الحرفة. ولم يمرّ وقتٌ طويل حتى أصبح يُعرف بشمس تبريز بسبب أناقته الفائقة وجمال وجهه وبهائه، الذي كان كالشمس. لكن يجب ألا نتخيّل أن شمس تبريز، الذي كان الملا رومي مريدًا له، كان هذا الشخص نفسه، بل إن شمس تبريز ذاك كان بالأحرى من تبريز في الأصل. واعتادوا تسميته بشمس تبريز بالطريقة نفسها التي يقال فيها سليمان بدخشاني أو إسماعيل هوناكيري»[22].

ويخلص فيراني بعد مناقشة ما ورد في المصادر إلى أن مسألة انحدار شمس تبريزي (مؤدب الرومي) من أئمة ألموت لا تزال مفتوحة، فضلاً عن اقترانه بالشيخ الإسماعيلي من ملتان، الذي لا يزال مقامه القديم في تلك المدينة محطّ زيارات مسلمين من مختلف المذاهب باعتباره مدفن الرومي[23].

صورة فارسية لشمس

عطاء الله تديّن وشمس تبريزي

أحدُ المحققين المدققين في شأن مولانا جلال الدين الرومي، قدّم إفادة لم تنل قبولاً عند عطاء الله تديّن في مؤلفه «بحثًا عن الشّمس – من قونية إلى دمشق»، محتوى الإفادة: «نعلم أن حياة شمس مغلفة بغلالة من الإبهام، وأن علاقة مولانا بهذا

(21) المرجع السابق، ص88.

(22) نفسه، ص89.

(23) نفسه، ص90.

120.indd 316 1/8/17 12:50 PM

الرجل الطّاعن في السّنِّ، إحدى أكثر الوقائع إثارة للعجب وانطواء على الأسرار». واعتبر عطاء الله أن هذه العلاقة ليست لغزًا فمتى ما طالع المرء بعناية معجزات وكرامات العشق، ودقق في لطيفة العشق، وتأمّل بشكل عرفاني أشعار مولانا، لتبدد الوهم وكُشف الستر[24].

لكن ذلك لم يمنع عطاء الله من أن يصف شمسًا بكونه محاطًا بهالة من الغموض؛ ويكرر ما وصفه به سبهسالار في رسالته «شمس الدين محمد بن علي بن مُلَك داد، سلطان الأولياء الواصلين، تاج المحبوبين، قطب العارفين، فخر الموحدين، صاحب الحال والقال»[25].

ويؤرخ عطاء الله للقاء شمس بالرومي في السادس والعشرين من جُمادَى الآخرة من عام 642هـ؛ فقد لقيَ الرّومي في هذا اليوم في «خان تجّار السُّكَّر في قونيةَ درويشًا رثَّ الثياب، يقول بعض الباحثين إنه من نسل إسماعيلية قلعة أَلَموت، وكان يبدو أنه حادُّ الطّبْع. وأحسّ بنوعٍ من العشق الإلهي أو المحبّة العميقة اللامتناهية إزاء هذا المعشوق المعنوي أو الرّباني. كان هذا الشيخ الرثّ الثياب شمسًا التبريزي، الذي كان ذا مشربٍ صوفيٍّ حادّ»[26].

يكتفي عطاء الله تدين هنا بنقل رأي أحد الباحثين، دون تسميته أو الإشارة إلى المصدر الذي حدد مذهب شمس، لكنه في سياق آخر لا يكتفي بالنقل، ويقرر في شأن شمس قائلاً: «يعلم شعبُ إيرانَ أنه شمسُ الدّين مُحمّدُ بن علي بن مُلك داد. وكانت أسرته من أهل تبريزَ، وله ارتباط من جهة النسب بـ(بُزُرك أُميد)[27] الذي تولّى في المدّة بين 607 و618هـ الحُكمَ في قلعة أَلَموت. نعم، هو من إسماعيلية ألموت.

(24) راجع: عطاء الله تديّن، بحثًا عن الشمس، من قونية إلى دمشق، جلال الدين الرومي وشيخه شمس تبريز، ترجمة: عيسى علي العاكوب، دار نَيْنوى، سورية، 2015، ص549.

(25) المرجع السابق، ص414.

(26) نفسه، ص119.

(27) هو أحدُ دُعاة الفرقةِ الإسماعيلية بمساعدته أخضَعَ حسنُ بنُ الصَّباح قلعةَ لَمْبسَر في مدينة رودبار ألَموت، ثم جعله نائبه. بعد كِيا بُزُرْك أميد، خلفه ابنه محمد منذ عام 538هـ.

120.indd 317 1/8/17 12:50 PM

إنه رجلٌ عظيم القدر»[28].

ويعلّق عيسى علي العاكوب على قول عطاء الله تديّن السابق، قائلاً: «حُكمُ المؤلّف هذا متسرّعٌ كثيرًا. وقد أنكر بعض الباحثين المحققين ذلك، ومنهم الأستاذةُ المرحومةُ أنّا ماري شيمل»[29].

لكننا لا نظفر بتعليق على تردد الكاتب وتناقضه فيما يسوقه من حوار على لسان جلال الدين الرومي، يرى فيه أن شمسًا ليس من الإسماعيلية: سأل أحدهم جلال الدّين البلخي: هل صحيحٌ أن شمسًا من نسل كِيا بُزُرْك أُميد، إمام الفرقة الإسماعيلية، وترك الآن المذهب الإسماعيلي؟ فكان الجواب (المتخيل) من قِبل عطاء الله تدين: هو مُسلمٌ، تلقّى تعليمَه الأوليَّ في تبريز، وسلك طريق التصوف (...) وأعتقدُ أنه ليس مرتبطًا بالإسماعيليين، ولا بالفرق المختلفة، وعنده في شأن ماهية الوجود ووحدة الوجود آراءٌ جديدة، مستمدة من فكر ابن عربي[30].

بديعُ الزّمان فروزانفر وشمس تبريزي

بناء على تاريخ دخول شمس تبريزي قونيةَ عام 642هـ وتحديد عمره في ذلك الوقت (كان في سنّ السّتين) لا بد أن يكون شمسٌ قد وُلِد عام 582هـ. دخل شمسٌ قونية وهو شيخٌ طاعن في السن، حسب إشارة مولانا الرومي: «رجعتُ بسببك شابًا جميلاً سعيدًا. أي شمس الدين الطّاعنُ في السّن»، اعتمادًا على هذا التاريخ وما يقوله مولانا، وتأكيد كتب المناقب التي تعتمد على أسانيد قديمة، لا يقبل العلاّمة فروزانفر ما يرد عند دولتشاه في تذكرته من كون شمسٍ ابنًا لجلال الدين حسن المعروف بـ(نو مسلمان = المسلم الجديد)، أو وُلد ما بين سنتي (607-618هـ)، فما يرويه دولتشاه لم تذكره أي من المصادر الأقدم عهدًا، كما أنه بنصّ المؤرخ عطا ملك الجويني لم يكن لجلال الدين حسن نو مسلمان ابنٌ آخرٌ غير علاء الدين محمد

(28) المرجع السابق، ص188.

(29) راجع: عطاء الله تديّن، ص188.

(30) السابق، ص376-377.

120.indd 318 1/8/17 12:50 PM

(618-653هـ)[31].

وكما ضعّف فروزانفر مرويات دولتشاه الأكثر ذيوعًا عن شمس وبدء أمره، ضعّف كذلك اعتمادًا على التدقيق التاريخي ما يُقال عن مرحلة تلقّيه وتعلّمه مبادئ الطريق الصوفي وصحبته لفخر الدّين العراقي؛ وعلى الرغم من كون الأفلاكي لا يحجم عن ذكر الأخبار الصحيحة والسقيمة جنبًا إلى جنب، إلاّ أن فروزانفر لا يستبعدُ هذا المصدر بشكل كامل، ويستفيد منه في التأريخ لشمس والرومي[32] عارضًا مروياته على ما ورد في كتاب المقالات المنسوب إلى شمس، وما يقوله الرومي في المثنوي والغزليات، ومن هنا جاء قبوله لصحبة شمس ولقائه بأوحد الدين كرماني، وتاريخ وصول شمس قونية وتحديد الأماكن التي أقام بها[33].

لا تحظى فكرة مذهبية شمس الإسماعيلية بمزيد من الدرس عند فروزانفر، على الرغم من كونه المصدر الأكثر تحقيقًا للرومي والمولوية، ولعل رصده لخطأ دولتشاه المتعلق بتأريخ ميلاد شمس ونسبته، أنهى مسألة كونه من الطائفة الإسماعيلية.

الإسماعيليون العرب

عارف تامر وشمس تبريزي

ارتبط اسم عارف تامر (1921-1998) بالدراسات الإسماعيلية العربية تحقيقًا للتراث وتأليفًا وتوضيحًا للصورة العربية عن هذه الفرقة؛ كان عارف قد اعتبر أن للرومي تاريخًا طويلاً في قونية، وعلاقة مباشرة بالإسماعيلية الباطنية، وذلك في مقال نشره عام 1994 [34]! لكنه كان قد تحدث عن شمس تبريزي الإسماعيلي بشكل

(31) فروزانفر، من بلخ إلى قونية، ص95.

(32) ثمّة تعامل مختلف مع مرويات الأفلاكي، يلاحظه من يطالع سيرة جلال الدين الرومي التي كتبها فروزانفر، فإلى جوار مصادره الكثيرة عن الرومي، نجد حضورًا لمرويات الأفلاكي من بداية السيرة إلى منتهاها، فيذكر في مقدمة كتابه أنه أدرج أكثر مطالب هذا الكتاب في تضاعيف السيرة، حتى إن القراء بعد مطالعة كتاب فروزانفر ليسوا في حاجة إلى قراءة المناقب، ويقول: «وحيثما لزم الانتقادُ لم أُحجمْ عنه». راجع: فروزانفر، مرجع سابق، ص29.

(33) المرجع السابق، ص101-102.

(34) راجع: عارف، تامر، بين الإسماعيلية الباطنية والصوفية، مجلة الباحث، السنة الثالثة عشرة، العدد الثاني، 62، أبريل (نيسان)

120.indd 319 1/8/17 12:50 PM

أكثر وثوقية في مقال نشره في مجلة «الأديب»[35] عام 1956، معتمدًا على دولتشاه -دون إحالة مرجعية- فنعرف من تذكرة دولتشاه أن شمس الدين التبريزي (كان في صباه جميلاً رائعًا، حتى إنه رُبّي بين النساء غيرة عليه، ثم كثرت سياحاته وتنقلاته حتى لُقّب بـ«روانه» أي الفراشة)! وهذا النقل لا يفيدنا كثيرًا في التعرّف على شمس من وجهة النظر الإسماعيلية، وربما كان النقل الخاص بطريقة شمس في الوعظ والتعبير عن آرائه يتفق مع بعض النقولات الواردة في المقالات، التي تظهر فيها بعض الحدة التعبيرية وعدم الرضا عن خطاب الصوفية في عصره.

ينقل عارف تامر بتأكيد -لا نجد له شاهدًا في مقاله- أن شمساً كان قويّ النفس جريئًا مؤثرًا في سامعيه شديدًا عليهم، يلقب من يعظهم أحيانًا بالثيران والحمير، وكان قليل الدرس فيما يظهر، ولكن ثورة نفسه واعتقاده أنه ملهم، وأنه ينحدر من أعظم أسرة إنسانية، كان يسحر من يلقاه. ثم يعتمد تامر في إظهار صورة شمس على ما يقوله المستشرقون (نيكلسون، وإدوارد براون، وسبرنجر) مقتبسًا ذلك عن إدوارد براون دون أن يحيل عليه[36].

من هو شمس تبريزي؟

يحدد عارف تامر ماهية شمس من خلال ما يورده إدوارد براون في تاريخ الأدب في إيران، ويعتمد على مصدر إسماعيلي [مخطوط «فصول وأخبار» أخبار الإسماعيلية في فارس صفحة «312» وإذا أورد هذا المصدر شيئًا فهو راجح عند تامر، لأنه -على حد قوله-: «ينطبق على الواقع، وإن كتاب (فصول وأخبار) هو أقدم مصدر تاريخي موثوق!»].

والمعلومة التي ترد في هذا المصدر عن (شمس الشموس) الإمام شمس الدين

– سبتمبر (أيلول)، 1994، ص114.

(35) راجع: عارف، تامر، صفحات من الأدب الفارسي (جلال الدين الرومي)، مجلة الأديب، العدد رقم 3، 1 مارس (آذار) 1956، بيروت.

(36) ينقل عارف تامر المعلومات الخاصة بشمس تبريزي عن براون، كما ينقل هوامشه نفسها في هامش مقاله السابق ويظن القارئ أن ما يرد في المتن والهامش من مطالعاته!

120.indd 320 1/8/17 12:50 PM

لا تعطينا أي صورة جديدة عما سلف واقتبسه تامر عن دولتشاه؛ إذ يورد أن الإمام شمس الدين (التبريزي) قد خرج من (قلعة الكهف) مستترًا لما هاجم الظاهر المملوكي قلاع الدعوة الإسماعيلية السورية، ثم عاد إليها بعد أن تمّ الصلح معه سنة 697هـ. وقد كان شمس مضرب الأمثال في الحُسن والجمال، لا يمكن لأي إنسان أن يطيل التحديق فيه أو التكلّم أمامه، فصيح اللسان، تجري الحكمة على لسانه، ويشع من عينيه نورٌ غريبٌ يصلُ إلى القلبِ[37]، مات سنة 707 في بلدة قونية ودُفن فيها.

ثم توسّع في مقالته أكثر في مجلة الدراسات الأدبية، التي تختصّ بشؤون الأدب الفارسي، ولم يعدد لنا مصادره التي اعتمد عليها، وغاية ما ذكر مرجع مخطوط لم يُطبع، يحتفظ هو بنسخته، ولأن المجلة الأخيرة تعنى بالأدب الفارسي، فلا بد أن يكون للإسماعيلية نصيب من مشاهير الكاتبين بالفارسية، وكما نُسب ابن عربي إلى الإسماعيلية ميلاً واستفادة، لا بد أن يُنسب الرّومي إلى الإسماعيلية، عن طريق تلقّيه تعاليم التصوف الجديدة من شمس تبريزي.

وفي تأريخه الموسّع[38] للإسماعيلية كتب عارف تامر عام 1991 عن شمس الدين محمد الإمام الخامس والعشرين، ويعتبر هذا الإمام آخر أئمة النزارية الإسماعيلية في ألموت، وُلد هذا الإمام في ألموت 643هـ واستطاع أن ينجو من المغول، وعاش متنقلاً بين أذربيجان وتركستان وبغداد وحلب. ثم أقام في قونية فترة طويلة، وعُرف بأنه كان يمتهن مهنة التطريز، وكان وسيمًا بهي الطلعة حتى أطلقوا عليه اسم (الشمس) أما شمس التبريزي الذي ذُكر بأنه معلّم جلال الدين الرومي، فهناك أقوال عديدة عنه. فالبعض يؤكد أنه هو نفسه الإمام شمس الدين بن محمد، والبعض الآخر يؤكد أنه شمس الدين ابن الإمام علاء الدين، أي عمّ الإمام شمس هذا. وهناك من يذكر: أنه شمس الدين بن صلاح الدين من أهالي (سبزه) وكان

---

(37) لا يشير عارف تامر إلى المصدر الذي اقتبس منه هذه الصورة لشمس، لكننا نرجّح أنه مصدر إسماعيليّ متأخر بناء على الاقتباس الوارد عند فيراني، راجع: فقرة احتجاب الشمس من هذا البحث.

(38) انظر عرضًا نقديًا قدّمه رضوان السيد للكتاب في مجلة الناقد اللبنانية، العدد رقم 50، أغسطس (آب) 1992، بعنوان: تاريخ الإسماعيلية وكيف (لا ينبغي) أن يُكتب؟ رصد فيه جملة من الأخطاء الكثيرة، وانتهى إلى أن كتاب الشيخ عارف تامر نموذج للأسلوب والنهج الذي ينبغي تجنّبه في الكتابة.

120.indd 321 1/8/17 12:50 PM

من دعاة الإسماعيليين البارزين[39].

مصطفى غالب والكتابة عن الرومي

عام 1982 ألّف مصطفى غالب -وهو محقق اشتهر بنشره نصوص التراث الإسماعيلي، وهو من أتباع قاسم شاه- كتابًا بعنوان (جلال الدين الرومي) ضمن سلسلة من الأعلام أصدرها في مؤسسة عز الدين ببيروت، كتب عن الرومي كما كتب عن الحلاج والسهروردي وغيرهما، ونركّز هنا على ما كتبه حول الرومي وشمس.

يخلو كتاب مصطفى غالب من المراجع العربية أو الفارسية أو الأعجمية، باستثناء أربعة مراجع تُذكر في هذا الكتاب، هي: المثنوي بترجمة الدكتور محمد عبدالسلام كفافي، وكتاب كفافي عن جلال الدين الرومي وتصوفه[40]، والنسخة العربية من كتاب المؤرخ الإنجليزي إدوارد براون عن تاريخ الأدب في إيران، ورسائل إخوان الصفا. وعن الترجمة العربية للمثنوي وكتاب كفافي المذكور، استطاع غالب أن يخرج كتابه.

يقول مصطفى غالب في كتابه: «ظلّ جلال الدين يعمل بالتعليم والإرشاد نحو أربع سنوات، وفي شهر رجب سنة 624 هجرية (...) مرّ به شيخ كبير تظهر على محياه علائم الإجلال والاحترام، فرحب به وأجلسه بجواره (...) ولم يكن الشيخ إلاّ حدًّا من حدود الدعوة الإسماعيلية، يُعرف بشمس تبريز، فأخذه الرومي إلى داره، وبقيا معًا لا يفترقان مدة عامين، ولا يعلم أحدٌ كيف تحوّل الرومي بعد اجتماعه

(39) راجع: عارف، تامر، تاريخ الإسماعيلية، المجلد الرابع، نشرة رياض الريس، 1991، ص100-101.

(40) يعتمد مصطفى غالب على نشرة مثنوي مولانا جلال الدين الرومي، شاعر الصوفية الأكبر، الكتاب الأول، ترجمة وشرح ودراسة للدكتور محمد عبدالسلام كفافي، نشرة المكتبة العصرية، بيروت، 1966، على أنه قد جددت جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا نشر كتب كفافي عام 2009 واحتفت الجامعة به، فأصدر مركز تحقيق التراث العربي، التابع للجامعة كتابًا تذكاريا عام 2012 بعنوان: محمد، عبدالسلام كفافي: رحلة الإبداع والعطاء، ضمّ بين دفتيه بحوث الندوة التي خصصت لإحياء ذكراه، كما سبق لرابطة الأدب الحديث بمصر الاحتفاء بكفافي، وسجّلت جريدة الأهرام المصرية بعض تفاصيل الاحتفال عام 2002، وأشارت إلى جهود شقيقته السيدة سعاد كفافي في بعث الحياة في مؤلفاته من جديد. وللتّعرف على جهود كفافي في خدمة التراث المولوي، يحسن الرجوع إلى مطبوعات كفافي الصادرة في الجامعة، ففي مقدّمة الجزء الثالث من المثنوي، ترجمة كفافي، بقلم أخيه المهندس جمال كفافي، حديث مفصّل عنه، نشرة دار الشروق بالقاهرة، ص61-62، وراجع أيضًا: مقدمة الديوان (من إبداعات الصبا)، نشرة جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، 2009، ص3، والجزء الثالث من مثنوي الرومي، ترجمة كفافي، نشرة دار الشروق، القاهرة 2001، ص8.

120.indd 322 1/8/17 12:50 PM

بشمس تبريز إلى إنسان آخر، اختلفت كلّ أحواله عما كانت عليه من قبل»[(41)].

يحيل غالب هنا على كتاب له بعنوان: أعلام الإسماعيلية، والكتاب ليس مرجعًا من المراجع التي تؤصّل معارفنا عن الرومي أو شمس، بل هو من تأليف غالب، ويحيل بعدها على كتاب مناقب العارفين للأفلاكي، ويبدو أنه سها فكتب اسم الأفلاكي (الخاكي)!

يعود غالب فيتحدث عن شمس والعلاقة الروحية التي ربطت بينه وبين الرومي، إذ هي علاقة لا يتوصّل إليها إلا من سبر أعماق شمس تبريزي وعرف مناقبه الروحية السامية[(42)]، وفي عودته تلك لا يحيل على أية مراجع تفيد القارئ وتجعله يتبين حقيقة شمس.

الصفحات (34-44) يخصصها غالب للحديث عن مصنفات الرومي، ولا يحيل على أي مرجع يوثّق ما يقوله من معلومات، أو ما يذكره من أشعار -على كثرتها- ويعدد مؤلفات الرومي على النحو التالي: (المجالس السبعة - الرسائل - فيه ما فيه - الرباعيات - ديوان شمس تبريزي - المثنوي) مكتفيًا بإشارة سريعة لا توضّح هل طالع هذه المؤلفات أم لا وهو يكتب كتابًا عن الرومي؟! ولا يظهر من حديث غالب أنه طالع شيئًا من هذه الكتابات باستثناء المثنوي، وتحديدًا الترجمة الجزئية التي قام بها كفافي، ولا تظهر ترجمة للمثنوي أخرى طوال صفحات كتابه، فلم يطالع مثلاً ترجمة الدسوقي شتا ولا ترجمة الجواهري، مما يعني أنه لم يطلع على المثنوي في صورته العربية التامة نظمًا أو نثرًا. وإذ يخصص غالب عشر صفحات للحديث عن مصنفات الرومي، فإن أغلب الصفحات انصب اهتمامه فيها على المثنوي، مقتبسًا أغلبه عن كفافي.

في الصفحات (45-49) ينقل لنا غالب قصة من قصص المثنوي بعنوان: (قصة البقال والببغاء) دون مقدمة أو تمهيد لماذا يختار هذه القصة، ويكتفي في

(41) راجع: مصطفى، غالب، جلال الدين الرومي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص15-16.

(42) المرجع السابق، ص25.

120.indd 323 1/8/17 12:50 PM

الخاتمة بقوله: (هذه الحكاية الرمزية الحقانية قُصد من ورائها النصح والإرشاد إلى عدم الأخذ بالقياس، والعمل بما يقيسه بعض الفقهاء)! وتتلو هذه القصة قصة أخرى أكبر ينقلها غالب في الصفحات (50-76) عن الجزء الثاني من المثنوي، وهي قصّة الأسد والوحوش، ويكتفي غالب بعد أكثر من خمس وعشرين صفحة نقل للقارئ فيها قصة تتحدث عن أمور شتى، تخص الإنسان وسعيه وحياته، بأن يعلّق في سطرين أن «مثل هذه الحكايات الرمزية تهدف إلى تجسيد الأفكار، ومعالجة بعض الأمور الخطيرة التي تجري على مسرح العالم الإسلامي عن طريق الرموز والإشارات والكنايات!»[43].

ثم يذكر غالب قصة من قصص رسائل إخوان الصفا، دونما إشارة واضحة للرابط بين هذه القصة وما ينقله عن مثنوي مولانا، وما إن ينتهي النقل يبدأ المؤلف بنقل جديد، والنقول الواردة في الكتاب على النحو التالي: قصة التاجر والببغاء ص(84-92)، وقصة الأعرابي وزوجته ص(93-110).

بعد ذكر القصص يشير مصطفى غالب إلى صلة الرومي باللغة العربية، وينوّه بأهمية أشعاره التي قرضها بالعربية وآثاره النثرية، ويقدّم نماذج من شعره بالعربية، تستمر هذه النماذج من ص111، حتى ص149. ويختم الكتاب بنقله لقصة أخيرة، هي قصة الصوفي وحماره من ص149 إلى ص163، لينتهي الكتاب.

صورة عربية لشمس

إحسان الملائكة وصائغ النفوس

عام 1983 (وهي في الثامنة والخمسين من عمرها) نالت إحسان الملائكة شهادة الدبلوم في اللغة التركية وآدابها من جامعة إسطنبول؛ وانكبّت على ترجمة الأدب التركي، ثم انصرفت إلى توثيق تأريخ التصوف في تركيا بعد عودتها إلى العراق نهاية العام نفسه. وألّفت كتاباً عن مولانا جلال الدين الرومي، قدّمته في

(43) نفسه، ص76.

120.indd 324 1/8/17 12:50 PM

ذلك الوقت إلى دائرة الشؤون الثقافية في بغداد عام 1985، واعتذرت الدار عن نشره لكون العراق –آنذاك– في حرب مع إيران، والرومي إيراني الأصل[44]! فلا يمكن طبع كتاب يدعم الفكر الإيراني، حدث هذا مع كتابات أخرى في الحقل الصوفي، بل إن بعض الكتب في تلك الفترة كانت تُطبع وتحذف منها فصول كاملة قبل طبعها لتتناسب مع سياسة الدولة العراقية. تم طبع الكتاب بعد وفاة الشاعرة في المركز الثقافي العربي عام 2015، وقد خلت هذه الطبعة من التنسيق والتدقيق، ولعل الناشر غضّ الطرف عن جريدة المصادر والمراجع التي أشارت إليها الكاتبة في ثنايا دراستها، ووعدت القارئ بأنه سيجد ما يعينه على الاستزادة –إن أراد– بالرجوع إلى القائمة التي أعدتها عن الرومي والمولوية في الدراسات التركية.

انتفعت إحسان الملائكة من كتابات شمس تبريزي، وأفادت كثيرًا من كتابات العالم التركي عبدالباقي كَلبينارلي، وتابعته في تحديد تاريخ ميلاد شمس 541هـ/ 1146، ونقلت عن مقالات شمس ما يساعد القارئ على معرفة طفولته وصباه. ويظهر شمس في دراسة إحسان كقارئ لكثير من المعارف، دائم البحث عن العرفان، كثير الدّرس للفقه والفلسفة والكلام، ملتمس للجمال والكمال، باحث عن رفيق الطريق، والرفيق لا بد أن يكون من جنسه، فلا تصلح المرأة للرفقة في الطريق، وتعزو إحسان ذلك إلى «أن المرأة في القرون الوسطى، كانت محجوزة في خبايا سراديب الحريم، وقد فقدت إنسانيتها: تحوّلت إلى كائن لم تخلقه الحياة، وإنما شوّهته مجتمعات الطمعِ والبلادة، كائن عجيبٌ يقع ما بين الإنسان والحيوان»[45]؛ فكان على شمسٍ البحث عن رجل.

والسبب في أن شمسًا جوّاب آفاق ولا يستقرّ في مكان، دائم التنقّل بين البلدان هو انتسابه إلى (المذهب الإسماعيلي) لقد كان أجداد شمس من الإسماعيلية، لكن والده تبرّأ من هذا المذهب، وكانت الشام أحب المواضع إلى شمس لأنها تفتح ذراعيها للصوفية، وفي الوقت ذاته كانت مقرًّا لكثير من فدائيي الإسماعيلية. لا تقدّم إحسان

(44) راجع مقال: ملهم، الملائكة، في رثاء الكاتبة العراقية إحسان الملائكة، موقع قنطرة، 2010، على الرابط التالي:
https://ar.qantara.de/content/fy-rth-lktb-lrqy-hsn-lmlyk-wd-mn-ktb-knt-my

(45) راجع: إحسان، الملائكة، جلال الدين الرومي صائغ النفوس، ص98.

120.indd 325 1/8/17 12:50 PM

أية أدلة على تنصّل والد شمس من الإسماعيلية، أو تحيل القارئ على مصدرٍ يؤكد معلوماتها، وفيما نعلم أنها وحدها من بين الكتّاب العرب التي اقترحت لحل لغز شمس تحوّله المذهبي عن الإسماعيلية إلى عقيدة المتصوفة في قونية (أهل السنّة) فشمس بمجرد وصوله إلى قونية 641هـ لم يكن على المذهب الإسماعيلي، وسبب ذلك عندها أنه كان متصوّفًا، والإسماعيلية ضد المتصوفة، والحياة وفقًا لتعاليم الإسماعيلية تتعارض مع حياة الصوفية؛ لحرص الإسماعيلية على متع الحياة[46].

تعود إحسان الملائكة مرّة أخرى للحديث عن مذهب شمس في سياق عرضها لمذهب جلال الدين الرومي؛ وهذه المرة تسوق جملة من كلمات شمس بلهجة عربية معاصرة[47]، معتبرة أن شمسًا، بناء على تلك الأقوال والآراء التي يسوقها في المقالات، منتمٍ من «الناحية الأيديولوجية، إلى الطائفة الإسماعيلية، وبما أن حسن بن الصباح زعيمٍ الإسماعيلية وصاحب قلعة ألموت يُعدّ ضمن قائمة أجداد شمس، فإن صلة هذا بالإسماعيلية صلة دم أيضًا، أعني صلة قرابة، وربما يعطينا هذا تفسيرًا حاسمًا لحذره الدائم من الأرصاد، وإصراره على الطّواف في الأرض وعدم الاستقرار، ومن يدري؟ فربما كان مقتله نتيجة هذه القرابة بالفعل»[48].

تتناقض هذه النتيجة التي تصل إليها إحسان مع ما قالته سابقًا من كون شمسٍ (لم يكن على المذهب الإسماعيلي)، إضافة إلى كونها لا تعتمد في فرضياتها أو ترجيحاتها على مصادر أو مراجع تدعم طرحها. على عكس ما تفعله عند الحديث عن شمس بعد لقاء الرومي، ولعل هذا السلوك مرهون بشحِّ المصادر عن شمس قبل اجتماعه بالرومي.

---

(46) السابق نفسه، ص98-99.

(47) نسوق هنا مثالاً على ترجمتها لبضع كلمات من (مقالات شمس): أنت تُعلن أن عُبّاد الحجرِ والصّنم أشرارٌ، فلماذا إذن تتوجّه نحو الحجرِ وتجعله قبلتك في الصلاة لله. -خلاصة جميع وصايا الأنبياء- ابحث عن مرآة لنفسك، وما المرآة إلاّ الله! -لو نطقتُ بالصّدق وقلت الحقيقة لطردوني من جميع البلدان ولأقفلوا دوني جميع الأبواب. -اختلافُ أصحاب العقائد وتعارض أقوالهم لا سبب له غير عجز اللسان وتهافت اللغات.-أليس الزّنديقُ أشرف من المتظاهرين كذبًا بالإيمان والتّقوى؟ -رجل الله هو الذي يحرصُ على تقديم الجواب الشافي حتى للكلب المار أمام الدار. -أبناء عصرنا يفترون على النبيّ محمّد، بل على الله نفسه، فلا ترو أحاديث لا تعرفها! راجع: إحسان الملائكة، جلال الدين الرومي صائغ النفوس، ص180-186.

(48) السابق نفسه، ص186.

120.indd 326 1/8/17 12:50 PM

شمس تبريزي: الشخصية الغامضة

يتضّح لمتابع هذا العرض لصور شمس تبريزي التي رسمتها له الكتابات العربية والاستشراقية؛ غموض هذه الشخصية واحتجاب كثير من المعلومات التي من شأنها أن تساعد الباحث في التعرّف على حقيقته، وعلى الرغم من شح المعلومات وكثرة التخمينات من الدارسين، فإن بعض الصور تبدو غير موثقة، ويعتمد الكاتب فيها على خياله ومذهبيته أكثر، يظهر ذلك -على سبيل المثال- في كتابة كلٍّ من عارف تامر ومصطفى غالب، فالمرجعية العلمية لكتابة أحدهما لا تتوافر إلا نادرًا، ولا يمكن اعتبار ما وصلا إليه من آراء معبّرة عن حقيقة تاريخية، بقدر ما نلتفت إلى رؤية كل منهما كتعبير عن مقالة الإسماعيليين العرب في العصر الحديث عن شمس تبريزي.

إن ما يقوله نيكُلسون -على سبيل المثال- عن شمس له وجاهته، فالشخصية الغامضة تليق بشمس، وتشبيهه بأحد فلاسفة اليونان يمكن قبوله، لكن لا يستطيع المرء أن يطمئن إلى فكرة كون شمس تبريزي رجلاً أمّيًا غفلاً من المعارف والعلوم، يعتمد على الحدس والإلهام فحسب، فنظرة لتعاليم شمس ومناقشاته واعتراضاته وآرائه في كتابه (المقالات) توضّح أن الرجل مطّلعٌ بشكل جيّد على ما كتبه الفلاسفة وعلماء الكلام والمفسّرون والأطباء والعرفاء، ويعتبر نفسه أهلاً للحكم على العلماء، يقول في مقالاته: «حدّثِ الناس على قدرِ أفهامهم، ولِنْ لهم على قدرِ صفائهم وانسجامهم. أمّا أنا فلا شأن لي في الدّنيا، وفي قونيةَ خاصةً، بالعوامِّ، لم آتِ من أجل العوام. أختبرُ هؤلاءِ الأشخاص الذين يَعُدّون أنفسهم مُدرّسين ومعلّمين بحقّ، أؤاخذُ الغلاظَ القلوب المطّلعين المُرائين، لا المُريدينَ المُحبّين».

ويقول في سياق آخر: «إن في الطّبيعةِ أسرارًا خفيّةً لا يمكنُ فهمُها بالمنطقِ والفلسفةِ والرّياضيات والكيمياء. هذه الأسرارُ وراء العُلُوم. والكُمَّلُ والعارفون هم وحدهم الذين سيطلعون على هذه الأسرار، فأسرارُ الطّبيعةِ لا يمكنُ تعليمُها لِكُلِّ غِرٍّ غير ناضجٍ»[49].

(49) عطاء الله تديّن، ص350.

120.indd 327 1/8/17 12:50 PM

ويعترض على أحد المتكلمين مستبعدًا ما يُقال عن ذات الله وصفاته من هؤلاء القوم؛ قائلاً: في يوم من الأيام كان أسدُ المُتكلّم يفسّر الآية الكريمة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]. وبالرغم من فضله الكبير، عندما كنتُ أسألُه عن شيء على الملأ كان ينفجرُ غيظًا. في يوم من الأيام سألته: عندما تقول: وهو معكم، أي إن الله معكم، كيف يكون اللّه معكم؟ قال: أنت شخصٌ تافهٌ؛ أيُّ غرض لك في هذا السؤال؟ ومثلما كان في الحلم كان في الغضب، كان ينفجرُ غضبًا. قلتُ: ما معناه؟ -ليس لي غرضٌ، فلم يرد على هذا السؤال. فأجبتُ: أنت كلبٌ معقودُ اللسان، طبعتَ نفسك على الإيذاء.

كيف تفسّرُ معنى «وهو معكم»، كيف يكونُ الله مع العبد؟

قال: نعم، الله مع العبد في العلمِ.

قلتُ: إن العلمَ غيرُ منفصلٍ عن الذّات وليس ثمّة صفة منفصلة عن الذّات.

فقال: أنت تسأل أسئلة قديمة.

قلتُ: وماذا تعني بالقديم؟ إنه سؤالٌ يموتُ الإنسانُ من جِدّته. والناسُ يقولون إن المتكلِّمَ هو هذا[50].

إن نقاشات كثيرة يمكن مطالعتها في كتاب المقالات تجعلنا على يقين أن شمسًا ليس أميًّا[51] بالمعنى الدارج للكلمة، من جهل صاحبها بالقراءة والكتابة والمعارف، ربما بشيء من التحفّظ نقبل بكونه أميًّا بالمعنى الصوفي، أي إنه لم يتلوث عقله أو

(50) فرانكلين، ص318-319.

(51) توضّح أنّا ماري شيمل في كتابها أبعاد صوفية في الإسلام، وكتابها (وأنّ محمدًا رسول الله) فهم الصوفية لمعنى كلمة الأميّ، فالنبي مُحمّد الأمي تعني أنه لم يفسد قلبه بمآثر عقلية ظاهرية، وكان وعاءً طاهرًا مثل جسد مريم العُذري، استحضر الصوفية هذا المعنى، فرأوا أن الشيخ الصوفي لا بد أن يكون من مآثره كونه أميًّا مثل النبي، فالنبي نموذج المحبة والتسليم الخالص، ولا بد للشيخ أن يكون على خطى النبي. لذا؛ نرى الخرقاني يقول: «إن وارث النبي هو من يقتدي بفعل النبيّ، لا من يسوّد وجه الأوراق». وقد كانت هذه المسألة محلاً لنقاش في أعمال المؤتمر المنشور بعنوان: الإسلام يسائل المسيحيّة في شؤون اللاهوت والفلسفة، إشراف: عادل ثيودور خوري، مشير عون، المكتبة البولسيّة، 2000.

120.indd 328 1/8/17 12:50 PM

تنشغل روحه بالمعارف الشكلية والظاهرية التي تحجب السالك عن الارتقاء وبلوغ الكمال الصوفي.

ويبدو مدهشًا بالنسبة لي ألا يقدّم فرهاد دفتري قولاً فصلاً في تاريخية شمس تبريزي على الرغم من إلمامه بكثير من المصادر الإسماعيلية؛ وقد أظهر شفيق فيراني اهتمامًا أكبر منه كما رأينا في العرض السابق، إلاّ أنه ترك المسألة مفتوحة للنقاش على الرغم من عودته إلى مصادر مهمة تخص الدرس الإسماعيلي والدرس الصوفي على حدٍّ سواء، وعلى الرغم من مطالعته لما كتبه إيفانوف عن شمس تبريزي.

إن أكثر معالجة تبدو فاصلة –على الرغم من اختصارها ووجازتها– في شأن شمس هي ما قدّمها العلامة فروزانفر، وعلى الرغم من اطلاع عطاء الله تديّن على عمله السيري عن مولانا لم يستفد منها، وتضاربت المرويات التي نقلها للحديث عن شمس، فمرّة يعتبره تديّن من الطائفة الإسماعيلية، ومرة يعدّه غير ذلك، لكن فروزانفر بتدقيقه التاريخي فصل في المسألة فلا يمكن اعتبار شمس ابناً للداعية الإسماعيلي الذي تنسبه المصادر الإسماعيلية المحدثة إليه، ويمكن التعويل بكثير من الاطمئنان على ما كتبه فروزانفر، فلا نعرف شخصًا في العصر الحديث وهب عمره في درس الرومي وعاش أفكاره مثلما فعل فروزانفر، فقد حقق فروزانفر[52] مجموعة من الأعمال الأدبية الكلاسيكية الفارسية، عبر مقارنة النصوص بأقدم المخطوطات الأصلية، منها: كتاب (فيه ما فيه) و(ديوان شمس تبريز) لمولانا جلال الدين الرومي، وكان في طليعة الباحثين في الأدب الفارسي، حيث تركزت أبحاثه في الأساس على علمين من شعراء الصوفية والأدب الفارسي: فريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي[53].

(52) للتعرف على المزيد من الجهود التي قدّمها فروزانفر، راجع مقال: Les recherches contemporaines en Iran sur l'œuvre de Mowlawi Djamileh Zia ترجمته عائشة موماد بعنوان: الأبحاث المعاصرة في إيران حول أعمال جلال الدين الرومي، ونُشر في كتاب: الرومي بين الشرق والغرب، المحروسة، القاهرة، 2015، ص144–154.

(53) كان فروزانفر ينشد الأشعار بنغمة معبّرة وعاطفية، وكثيرًا ما كان شعرُ الرّومي يُفيض العبرات على عينيه، مُحدثًا نداوة تنتقل سريعًا إلى أعين طلاّبه مع إيقاعات إنشاده وتنغيمه، ويتذكر فروزانفر أنه سمع وحفظ عن ظهر قلب غزليته الأولى من غزليات الرومي عام 1920، وتبدأ الغزلية بالبيت الشهير: تجلّ بوجهك فإن مُناي الحديقة وبستان الورد، وافتح شفتيك فإن مناي الوافرُ من الشّهد. راجع: لويس فرانكلين، (الرومي ماضيًا وحاضرًا، شرقًا وغربًا– حياة جلال الدين الرومي وتعاليمه وشعره) ترجمة: عيسى علي العاكوب، طبعة

120.indd 329 1/8/17 12:50 PM

ويُعدُّ تحقيق فروزانفر للمثنوي من أجود التحقيقات، وأهم المراجع لدخول عالم مولانا، وقد أصدره في مؤلف بعنوان (شرح المثنوي الشريف)[54]. وحسب تصريحات توفيق سبحاني (باحث في أعمال مولانا)، يكفي أن نقرأ بعناية وتمعن الأبيات التي شرحها وعلّق عليها فروزانفر، وعددها (3012) لكي نفهم المثنوي بأكمله، لأن مولانا قد وضع مجمل أفكاره في الكتاب الأول.

قام فروزانفر كذلك بدراسة نقدية لشروح المثنوي المدونة خلال القرون السابقة: فقد ربط الشارحون القدامى أفكار مولانا بأفكار ابن عربي وصدر الدين الشيرازي، ولم يكن فروزانفر من المؤيدين لذلك، حيث يعتقد أن تلك الشروح قد ابتعدت كثيرا عن الفكر الصحيح لمولانا جلال الدين الرومي.

ألّف فروزانفر كذلك كتاب «أحاديث المثنوي» وهو كتاب جامع للأحاديث التي ذكرها مولانا في المثنوي، بينما كان كتاب «مآخذ قصص وتمثيلات مثنوي» عصارة جهوده في بحث استمر خمسة وعشرين سنة، حيث ضمّ قائمة بـ(251) حكاية وصورة مجازية، استعملها مولانا في المثنوي، وقد أضاف فروزانفر لهذه القائمة القصص الأصلية بالفارسية أو بالعربية، ثم مختلف الروايات الموجودة حول كل حكاية.

كما كتب فروزانفر كذلك كتابًا حول سيرة مولانا، تحت عنوان: «رسالة در تحقيق أحوال **وزندگانی** مولانا جلال الدين محمد مشهور به مولوی»[55] (رسالة في تحقيق أعمال مولانا جلال الدّين محمد، المشهور بالمولوي وحياته) والذي يعدّ من المراجع المهمة التي عدنا إليها في هذا العمل.

وزارة الثقافة السورية، 2011، الجزء الثاني، ص1020.

(54) طُبع شرح فروزانفر في مطبعة طهران عام 1967، ويرى زرين كوب الذي ألّف هو نفسه شرحين للمثنوي، أنّه لا مفسّر آخر في مقدوره حتى أن يداني فروزانفر، الذي كانت معرفته بالرومي واسعة إلى درجة أنه حين يضع قلمه تكون الكلمة الأخيرة قد قيلت.

(55) نال فروزانفر درجة الدكتوراه عن إعداده لهذه السيرة التي بُنيت على مبادئ البحث العلمي الحديث، وقد نُشرت هذه الدراسة عام 1936 بالعنوان المذكور أعلاه. وفي 1990 تُرجمت هذه السيرة إلى التركية بعنوان: (مولانا جلال الدين Mevlana Celaleddin) بعناية فريدون نافذ أوزلوق، بإسطنبول. ثم تُرجمت إلى اللغة العربية بعنوان: (من بلخ إلى قونية- سيرة حياة مولانا جلال الدين الرومي)، بعناية العلاّمة عيسى علي العاكوب بدمشق عام 2006.

120.indd 330 1/8/17 12:50 PM

ومما يجعلني مطمئنًا لكون شمس ليس ابنًا لداعية من دعاة الإسماعيلية، أنه بنفسه يقرر في المقالات أن هوة شاسعة تفصل بينه وبين والده، فهو في طريق ووالده في طريق ثان، وهو ما يذكّرنا بأحوال كثيرين من الصوفية السابقين، فحين رأى شمس تبريزي قلق والده عليه حاول التخفيف عنه قائلاً: «أنا أبدو مثلكم ظاهرًا، لكنني في الحقيقة مُباين ومختلف عنكم»[56].

كان شمسُ عاجزًا عن إظهار كشوفه الصوفية لوالده، بالرغم من أنه أراد ذلك، وكان يقول عن والده: «كان رجلاً طيّبًا ذا خُلق نبيل، سرعان ما تفيض عيناه بالدمع، بالرغم من أنه ما كان (عاشقًا) أو عارفًا. وأن يكون المرءُ إنسانًا طيّبًا شيءٌ، أما أن يكون عاشقًا للحقِّ فقصّةٌ أخرى تمامًا».

جعل العشق شمساً الصوفي غير ميّال للطعام، ويحكي عن صباه وشبابه قائلاً: «يُقال: إنه في صغري أُزيلت شهيتي، إذ كانت تمرُّ ثلاثة أيام أو أربعة من دون أن آكل شيئًا، بسبب شيء قاله الله، لا الناس، كان أبي يقول: وا أسفاه لولدي، يقول: إنه لن يأكل شيئًا. قلت: لكنّي لستُ ضعيفًا، أنا قويٌّ إلى حدّ أنني لو شئتُ أن أطير من النافذة لطرتُ مثل الطّائر. في كلّ أربعة أيام يغلبني شيءٌ من النعاس للحظةٍ، ثم ينصرف. لا تنزلُ اللقمةُ في حلقي.

ماذا حصل لك؟

لم يحصل شيءٌ. هل أنا مجنون؟ هل مزّقتُ ثياب أحد؟ هل وقعتُ عليك؟ هل مزّقتُ ثيابك؟

ألا تأكل شيئًا؟

اليوم لا آكل. غدًا – بعد غدٍ؟ في يومٍ آخر»[57]؟!

(56) إحسان الملائكة، جلال الدين الرومي صائغ النفوس، ص96.

(57) فرانكلين، ص307–308. يحكى أن شيخنا شمس الدين التبريزي قال في أحد الأيام: كنت في المدرسة ولم أكن بلغت سن الرشد بعد. كان يمرّ علي ثلاثون أو أربعون يوماً دون أن أحس برغبة في الأكل، وذلك لحبي لمحمد (صلى الله عليه وسلم) بعد دراستي لسيرته.

120.indd 331 1/8/17 12:50 PM

ويضيف شمسٌ: والدي لم يفهمني البتة، كنتُ غريبًا في مدينتي، والدي كان غريبًا عليّ، وكان يخشاه قلبي، كنت أظنّ أنه سيقع عليَّ، كان يكلّمني بلطفٍ، فكنتُ أظنُّ أنه يضربني، ويخرجني من البيت، كان والدي يسألني: ماذا حدث لك؟ أعرف أنك لست مجنونًا لكنني لا أفهمُ أي سلوك لديك!

إن كنت تتصرفُ هكذا مع أحبائك، فكيف ستعاملُ أعداءك؟

وعندما كان والد شمس يلحّ عليه في السؤال: ماذا حدث لك؟ كان يجيبُ شمسٌ بأنهما لم يُقطعا من القماش نفسه.

يا ولدي، يقينًا لستَ مجنونًا، ولستَ أيضًا مرتاضًا، لا أفهمُ حقيقة تصرُّفِكَ وسلوكك، فما مشربُكَ الحقيقيُّ؟ فقلتُ:

– اسمع مني كلمةً واحدةً، إنّ حالَك معي تُشبهُ حال من وضعَ بيضَ طائرٍ مائي، كالبطِّ، تحت طائرٍ منزليٍّ، فحضنها الطائرُ الأهليُّ، ثم خرج منها صغارٌ من طائر البطّ. وقد كبرتْ صغارُ البطِّ هذه، وذهبتْ مع أمّها إلى شاطئ نهرٍ، وألقتْ بأنفسها في الماء. أمُّها، الطائرُ المنزليُّ، تذهبُ إلى شاطئ النهر، ولكن لا قُدرة لها على دخول الماء.

فيا والدي، اعلم بأنني أرى بحرًا صار هو مركبي. وهذا هو ظنّي وحالي: إذا كُنتَ أنتَ مِنّي، أو أنا منك، فادخل في ماء البحر هذا، وإلا فاذهب كما يذهبُ الطائرُ الأهلي.

ألقى والدي عليّ نظرةَ تعجبٍ وقال:

مناقب العارفين، أفلاكي «ترجمة عائشة موماد» عن النسخة الفرنسية.

On rapporte qu›un jour notre Maitre Chems-ed-din-Tébrizi dit- J›étais alors à l›école enfantine, n›ayant pas encore atteint l›âge adulte; trente ou quarante jours se passaient ou je ne désirais pas prendre de nourriture, à cause de l›amour que me causait l›étude de la biographie de Mohammed. Aflaki- Les sains des derviches tourneurs «Manakib Al Arifine» Traduit par Clément Huart

120.indd 332 1/8/17 12:50 PM

– معي، أنا الحبيب، تفعلُ هكذا، ماذا ستفعلُ مع العدوّ؟

ويقولُ شمسٌ إنه تأثّر من كلام والده، وتأسّف لأنه لم يفهم حقيقة كلامه، ولم يعرف أيّة شُعلةٍ كانت تحرقُ وجوده[58].

مثل هذه الأقوال تظهر والد شمس في صورة عادية للغاية، فلا يعدو كونه رجلاً من العامة يصاب بالذهول والاندهاش من تصرفات ابنه، وأحيانًا يشك في جنونه، إنه لا يتفهم مطلقًا ما يعتريه من وجد، أو ما يسير فيه من درب صوفي يبلغ به هذه الحال.

وفضلاً عن عدم قبولنا لكثيرٍ من المسالك في معالجة سيرة شمس قبل لقائه بالرومي، فإننا لا نقبل ما يُقال عن كون شمس شخصية خرافية خُلقت على يد الرومي، وهو رأي تم افتراضه سابقًا في الدرس الاستشراقي الكلاسيكي، وأعيد إحياؤه في العصر الحديث على يد بعض الأدباء العرب أمثال جمال الغيطاني[59]، من باب الفتنة بهذا الكائن الذي يتحدث عنه الرومي في الغزليات، فلا يعقل بالنسبة للقارئ أن يكون الشخص المكتوب عنه في الغزليات حقيقة أنه ليس موجودًا في دنيانا!

كذلك لا يمكن تجاوز خطأ تحسين عبدالجبار إسماعيل دون التنبيه عليه، فحينما ترجم تحسين مجموعة من المختارات من أشعار مولانا جلال الدين الرومي معتمدًا على النسخة الإنجليزية لكتاب (رومي الشعر والصوفية) لنيكلسون وسجّل في مقدّمته لتلك المختارات أن (شمس تبريزي) هو نفسه (ابن عربي)[60]! وهو اجتراح

(58) عطاء الله تديّن، ص326.

(59) تحدّث الغيطاني عن ديوان غزليات شمس تبريزي الذي ألحّ على الأستاذ إبراهيم الدسوقي شتا أن يقدّمه للقارئ العربي مترجمًا، وفي سياق حديثه قال عن شمس: «ذلك الدرويش المجهول، والذي لم يرد عنه في كتب التراجم إلاّ إشارات سريعة وسطور قليلة، مما يدفعني إلى الشّك في وجوده أصلاً، وأنه ربما يكون من إبداع مولانا وثمرة لرؤاه». ويبدو رأي الغيطاني انبهارًا بما قرأه من أشعار مترجمة للرومي، لذا يعلّق على بعض كلمات مولانا قائلاً: «هل من المعقول أن ينشد مثل هذا الشعر من وحي إنسان محدود بالزمان والمكان؟ هل من المعقول أن تفيض هذه المعاني من أجل إنسان له اسم وتعيين، محدد، يجيء ويغيب؟ بالقطع لا، لذلك فإنني أكثر اقتناعًا أن شمس تبريزي ليس إلا وسيلة للتعبير عما هو أشمل، عن تلك المحبة الإلهية التي يفيض بها الإنسان». راجع: جمال الغيطاني، مقال (مللت الوحوش وأبحث عن إنسان)، مضمّن في كتاب (رسول الشعر العرفاني جلال الدين الرومي) لسمير أرشدي، نشرة مؤسسة البابطين، الكويت، 2007، ص75–77.

(60) راجع: (مختارات من قصائد جلال الدين الرومي)، ترجمة تحسين عبدالجبار إسماعيل، كتاب دبيّ الثقافية، الإصدار (79)،

120.indd 333 1/8/17 12:50 PM

ليس له مستند تاريخي، كما أن رؤيته تتناقض مع فكرة شمس تبريزي والرومي عن ابن عربي، فابن عربي الوليُّ لم يكن مبجّلاً بالقدر الكافي عند شمس والرومي، وقد وجّه شمس في مقالاته نقدًا له ولأفكاره[61]، وكذلك أُثر عن مولانا جلال الدين أنه رأى فتوحات زكي (المغنّي صاحب الصوت الجميل) خيرٌ من فتوحات مولانا ابن عربيّ المكّية ! وعلى الرغم من تصريح الرومي بذلك، فإن تلميذ ابن عربي (صدر الدين القونوي) ظلّ على مقربة من الرومي، حتى إنه في عُرس وفاة مولانا طُلب منه أن يؤم المصلين لصلاة الجنازة عليه، لكن الرواية تقول إنه خرّ مغشيًا عليه حينما طُلب منه ذلك.

كما لا يمكن التغافل عن توثيق سلطان ولد ابن مولانا لشخصية شمس تبريزي، وحديثه عنها في كتابه ولد نامه، هذا إذا تغاضينا عن ذكر بقية كُتّاب السير لشخصية شمس منفصلة عن ابن عربي[62]. فضلاً عن كون سيرة ابن عربي معروفة للجميع.

مولانا جلال الدين الرومي والسلفيون الجدد

استاء أحد شيوخ المولوية من كثرة الجدال والنقاش الدائر في عصره حول الطقوس والممارسات الصوفية، ورأى أن الكتابة المضادة لم تفهم إشكاليات الممارسة الروحية، كون أصحابها يفتقرون إلى المعرفة والخبرة، واعتبر أنه من الأفضل ألا

2013، ص19–24.

(61) يتحدث شمس في مقالاته عن شيخ أفاد من دروسه ومقالاته، وفي الوقت نفسه يوجّه إليه نقدًا لاذعًا لمخالفته للشريعة، يذكر شمس هذا الشيخ باسم محمّد، ويرجّح موحّد محقق مقالات شمس أن هذا الشيخ هو ابن عربي، اعتمادًا على بعض المقتبسات عن المقالات التي يوردها أفلاكي، وفي الوقت نفسه ينصّ على تعيين (محمّد) المقصود (الشيخ محمد بن عربي في دمشق)، وعلى الرغم من أن مصداقية أفلاكي كثيرًا ما كانت موضع شكّ، فإن فرانكلين يعتقد جريًّا مع موحّد أن الشيخ محمدًا هذا هو العارف الصوفي الشهير محيي الدين بن عربي (ت1240)، مؤلف الفتوحات المكّية. راجع: فرانكلين، ص320–321. ويتابع شفيق فيراني في دراسته (صراع البقاء) فرانكلين في الشك في مصداقية الأفلاكي، راجع: ص90. ومن أمثلة نقد شمس تبريزي لابن عربي، قوله في المقالات: كان الشيخ محمد يسجدُ ويركعُ في أوقات كثيرة، ويقول: (أنا عبدٌ لأهل الشرع) لكنه ليس لديه متابعةٌ [للنبيّ]. كان لي منه استفادة كبيرة، ولكن ليس مثلما استفدتُ منكم. [الإشارة للرومي] ما استفدته منكم لا يشبه ما استفدته منه. شتّان بين الدّر والحصى! لكن المريدين لا يدركون قدركم أبدًا، وهذا عجيبٌ، وفي النهاية يدركون ذلك، وأنتم غير مهتمين بأن تظهروا للمريد وغير المريد! بعضهم يحاول بألف طريقة أن يُظهر من نفسه شيئًا، وبعضهم يحاول بألف حيلةٍ أن يُخفي نفسه. راجع: فرانكلين، ص321–322 .

(62) لا تشير كلود عدّاس في دراستها عن ابن عربي إلى لقاء تمّ بين شمس تبريزي وابن عربي، وإن أشارت إلى لقاء شمس بوسيط مشترك بينهما هو أوحد الدين كرماني، وتركّز عدّاس في إشارتها على انتقادات وجّهها شمس تبريزي إلى أوحد الدين كرماني، معتمدة على «نفحات الأنس» للجامي، راجع: ابن عربي سيرته وفكره، ترجمة: أحمد الصادقي، نشرة دار المدار الإسلامي، بيروت، 2014، ص360.

120.indd 334 1/8/17 12:50 PM

يُناقش الموضوع مع الذين يهاجمونه، وقد يئس من الحديث معهم، على الرغم من ذلك كتب بنفسه رسالة في حق (الدوران الصوفي) وتحدث فيها عن شرعية السماع الصوفي مستندًا إلى القرآن وممارسة أتباع النبي للذكر بطرائق مختلفة في الإسلام المبكر، منتهيًا إلى أن شريعة الله لا تحرّم مثل هذه الطقوس.(63)

تظل المولوية موضوعًا للجدل والنقاش، ويحظى مولانا جلال الدين الرومي باهتمام بالغ شرقًا وغربًا، وأخيرًا نجد حضورًا كبيرًا لأقواله ومعارفه الصوفية، الجمهور الأكبر يلتقط كل ما يُكتب عن الرومي أو له بحبٍّ وشغف بالغ، وقد انزعج البعض من أتباع الطرق الصوفية لهذا الحضور، مما حدا ببعضهم أن ينزع عن الرومي تصوفه، ويصم التصوف الفارسي بابتعاده عن الشريعة. الموقف نفسه أكثر حدة وصرامة من جانب التيار السلفي، فقد أعاد أحدهم إثارة المشكلات نفسها التي استاء منها نوري أفندي، وتحدث عن (فسوق المولوية) وعن نشرهم للفجور واستهانتهم بتعاليم الإسلام، معتمدًا في ذلك على قراءة كتب التاريخ، جاعلاً المقولات العقيدية حاكمة على ما يرد هنا أو هناك من أخبار.

في هذه الورقة أتناول مصدرًا غلبت عليه الأسطورية كما هو الشأن في الكتابة المناقبية وقصص القديسيين، أرّخ للرومي والمولوية بقلم المريد الذي يكتب عن شيخه، والمؤمن عن نبيّه، والعاشق عن معشوقه، فغابت الحقيقة وسط هذا الكمّ من التبجيل والأسطرة، مما وضع الباحث أمام مهمة صعبة وهو يتعامل مع هذا الكم الهائل من المواد.

البعضُ وفّق في التعامل مع المرويات التاريخية، والبعض الآخر اتخذها مطية لإدانة الرومي، وسنرى في هذه الورقة أمثلة لذلك.

(63) لمتابعة موقف المولوية تجاه ما يثار من إشكالات حول طريقتهم وطقوسهم، راجع: ألبرتو فابيو أمبروزيو، الدرويش الدوّار: عقيدة الصوفية وطقوسها في القرن السابع عشر، ترجمة الأخت لويزات معوض، نشرة دار المشرق، بيروت، 2015، ص178–215.

120.indd 335 1/8/17 12:50 PM

الأفلاكي وسيرة الرومي

اشتهر الأفلاكي بكتابه (مناقب العارفين) وهو الكتاب السيري الأكثر طولاً وتفصيلاً في كل ما يتعلق بسيرة الرومي وآبائه الروحيين وتلاميذه ومريديه؛ وعلى الرغم من أنه يقدّم معلومات مفصلة عن أشياء كثيرة في كتابه، فإن الأفلاكي تظلّ جوانب كثيرة من حياته غير معروفة عند المحققين والمؤرخين، فحسب ثاقب دده نعرف أن اسم الأفلاكي أحمد آهي ناطور، تتلمذ لبدر الدين تبريزي، وله سياحات ورحلات قطعها في سبيل تحصيل العلم، ويُقال إن أباه كان يروي مناقب بهاء الدين ولد سلطان العلماء ووالد حضرة مولانا جلال الدين.

بدأ الأفلاكي في كتابة «مناقب العارفين» في قونية عام 718هـ/ 1318 واستمر في تنقيح الكتاب وتوسيعه فترة طويلة؛ لذا توجد من الكتاب أكثر من نسخة، يعثر قارئها على تعديلات كثيرة، وكما أُهملت المعلومات عن حياته وكأنه كان نسيًا منسيًّا، فلم يبرز اسمه على نسخ مناقب العارفين[64]!

جمع الأفلاكي مرويات سيرته عن طريق المشافهة من أشخاص أحبّوا مولانا واتبعوا طريقته التي أبرز ملامحها ابنه سلطان ولد؛ بعض هؤلاء الأشخاص كانوا على قيد الحياة والتقوا بمولانا وولده، وكعادة المحبّين تم إضفاء هالات ونسبة أشياء كثيرة إلى محبوبهم من باب التبجيل والتعظيم يستحيل قبولها عقلاً أو صدورها عن الرومي، كما يستحيل حدوثها في الواقع كما سيأتي في هذا المقال.

التقى الأفلاكي بأولو عارف جلبي[65] وبناء على تشجيعه بدأ في كتابة

(64) راجع: فرانكلين، لويس، الرومي ماضيًا وحاضرًا، شرقًا وغربًا، حياة جلال الدين الرومي وتعاليمه وشعره، ترجمة عيسى علي العاكوب، نشرة وزارة الثقافة، دمشق، 2010، ص492–512.

(65) وُلد أولو عارف جلبي في يوم الثلاثاء الموافق للثامن من شهر ذي القعدة عام 670 هجرية (7 يونيو/ حزيران 1272م) وهو ابن سلطان ولد وفاطمة ابنة قويومجي شيخ صلاح الدين، أحب مولانا جلال الدين حفيده جدًا وكان يدللُه كما كان حضرة النبي يدلل الحسن والحسين، متمثلاً بميراث المحمديين، فقد قال (عليه السلام): «فليكن طفلاً من عنده طفل». نشأ جلبي برعاية مولانا وسلطان ولد وكان محبوبًا من البيت المولوي، وبدأ عارف جلبي يمثّل الطريقة المولوية عندما وافت المنية أباه، وقد أمضى حقبة من عمره في السياحة والترحال، من أقواله: «إن المتصوفة العارفين هم شمس الشموس، وإن الشمس لتنير بنورهم». وقال أيضًا قبل وفاته: «إن الذهاب إلى جوار المحبوب يبدل من حال إلى حال، ويتوجب التخلّص من الوجود والفرار منه، وليس من الصواب الذهاب بغطرسة ووقاحة إلى المحبوب

120.indd 336 1/8/17 12:50 PM

السيرة، وليس غريبًا على الأفلاكي أن يعتقد في كرامة جلبي، وينسب إليه كرامات كثيرة، فجلبي الحفيد الأبرز لمولانا، والحامل للأنوار السبعة «وجهه مبارك ميمون، ومشاهدته مباركة للأرواح»[66]، لذا فملازمة الأفلاكي حققت له مبتغاه من التعرف على عالم مولانا عبره، لأن الأفلاكي لم يعرف الرومي معرفة شخصية إذ وُلد بعد وفاته، ومن خلال مطالعة لويس فرانكلين لمناقب العارفين يؤكد لنا ما أكده غيره من الدارسين على النحو التالي: (صورة الرومي التي رسمها الأفلاكي غيرُ مقيّدة بأي ذكريات مباشرة للرومي، المخلوق البشري، ولعل هذا يفسّر جزئيًا تقبّله القصص الأكثر خيالية وغرائبية، التي تدور حول موضوع الشخص الذي هام فيه. ويروي الأفلاكي أحداثًا خارقة للعادة من دون أن تطرف له عيْنٌ، إلى جانب تفاصيل أكثر دنيوية عن حياة الرومي العائلية تبدو قابلة للتصديق إلى الحد الكافي. وعندما يكتب الأفلاكي بعد ذلك بكثير يقدّم معلومات أكثر كثيرًا في شأن حياة أولو جلبي والمولوية المتأخرين، وإذا كان العلماءُ غير ميالين إلى النظر إلى مناقب الأفلاكي على نحو أكثر تحقيقًا وتمحيصًا، فما ذلك إلاّ لأن التفاصيل السيرية التي يقدّمها لا يمكن العثور عليها في أي مصدر آخر) [67].

تنسبُ السّيرُ الصوفيةُ أعمالاً وكرامات لا يمكن قبولها من قِبل كثيرين وخصوصاً خصوم التصوف، وتتم إدانة المتصوفين بناء على هذه المرويات. اللافت للنظر أن التلقي السلفي لمولانا وسيرة حياته لا يذكر شيئًا عن هذه الخوارق، بل يحاول طيلة الوقت أن يُظهر مصداقية المصدر الأسطوري؛ ليؤكد لجمهوره ما وصل إليه من استنتاجات تجعل حكمه محل رضا وقبول تام، وإذا ذكر أمرًا خارقًا فإنه يتغافل عن عدم إمكان تحققه واقعًا وأسطوريته وينشغل بما يمس المعتقد فيه!

ومن ذلك ما فعله أبو الفضل القونوي[68] في كتابه (أخبار جلال الدين

الجميل الذي يشبه القمر، بل يلزم الذهاب إليه بوجه شاحب شديد الاصفرار وعينين مغرورقتين بالدموع». راجع: عبدالباقي كليبنارلي، المولوية بعد جلال الدين الرومي، ترجمة عبدالله أحمد إبراهيم، نشرة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص115-145.

(66) كان سلطان ولد يحبّ ابنه جلبي كثيرًا وهو من وصفه بهذا الوصف، راجع: عبدالباقي، كليبنارلي، مرجع سابق، ص115.

(67) انظر: فرانكلين، لويس، الرومي، مرجع سابق، ص495.

(68) وُلد محمد عبدالله أحمد في مدينة قونية عام 1966م/ 1386هـ، وأتم تعليمه في المملكة العربية السعودية، ولا يزال يقيم فيها، وتلقى

120.indd 337 1/8/17 12:50 PM

الرومي)، إذ اعتمد الأفلاكي مصدرًا رئيسًا[69] لكتابة سيرة مولانا برؤية مخاصمة، وسأورد هنا نماذج لتعامله مع المرويات تبعًا للاعتقاد ومحاكمة لها دون النظر إلى تحقق وقوعها، وسأناقش بشكل مفصّل مروية ذائعة تتحدث عن موقف الرومي من المغول، وبالأحرى موقف الصوفي من الجهاد.

نماذج من التعامل السلفي مع المرويات التاريخية

إن مسألة التحيّز والانتقائية يُصاب بها كثيرون في حديثهم عن شخصيات تُقدّس –نسبيًا– من قِبل محبّيهم أو من يعتنقون أفكارهم؛ يمثّل هذا السلوك سلوك جمهور عريض يصعب حصره أو متابعته، لكنه يشتركُ في أمر مهم، وهو التشجيع والمتابعة دون الالتفات إلى الحقائق حتى وإن مرّت أمامه، وفي أوقات كثيرة يعطي ظهره لما يقدّم إليه[70]، حتى وإن كان ما يُقدّم إليه من شخص ليس متحيزًّا إلى فئة تخاصمه وتزهد في مقولاته، فقد اعتدنا في تراثنا الثقافي أن نوجّه التاريخ تبعًا لما نؤمن به عقديًا، فالشيعي لا يقبل بالرواية السنية، والسلفي لا يقبل بالرواية الأشعرية، مما يجعل الحديث عن رواية تتصف بالإجماع في أيّ من مستوياته أمرًا مستحيلاً[71].

سنعمل هنا على متابعة التلقّي السلفي لما كُتب عن مولانا جلال الدين الرومي،

كتبه رواجًا في محيط المملكة، وبفضل انتشار الدور التي توزّع كتب التيّار السلفي، لقيت كتبه رواجًا في مصر وبيروت وغيرها من البلدان العربية، يختار محمد لكتبه عناوين تقترب من اللغة التراثية، لذا ظنّ البعض أنه مؤلف قديم، وبعض الجمهور الذي يحب الرومي اليوم التقط كتابه عبر الإنترنت، لكنه سرعان ما زهد فيه نظرًا للغته الصادمة للقارئ، ومن المفارقة أن الشيخ محمد في حوار له مع بعض الشباب، نصحهم باستخدام الحكمة والموعظة الحسنة التي يتحلى بها الصوفية في حديثهم مع الآخرين، وقد استبدل هو في كتابته لفظة العاشق والمعشوق بـ(الناكح والمنكوح) بما تحمله من دلالة مسيئة، وهو من إشكالات التعاطي مع نصوص الآخرين، فعدم الوعي باللغة يؤدي إلى هذا الخلل في فهم مراد الآخر، والكلمات التي أدانها الشيخ السلفي ترد في أشعار (الشيخ عبدالقادر الجيلاني، والهروي الأنصاري) لكنه لا يهتم إلا بتحقيق غايته فحسب.

(69) يقول الكاتب: «وأمّا مصادري التي أنقل منها أخباره، فمصدرٌ رئيس هو كتاب مناقب العارفين للأفلاكي، ثم كتاب: سبهسالار، وكتب أخرى باللغة التركية والعربية»، راجع أخبار جلال الدين الرومي، نشرة السعودية 2000، ص71.

(70) سنلاحظ ذلك بوضوح في مشاركة هذا الجمهور لمعلومة، والإشادة بها اعتمادًا على ثقتهم بشخص كاتبها كونه يمثّل تيارهم، فالصوفي (نسبة من حيث الصورة) يحتفي بمقولات وينقلها دون العودة إلى المصدر ودون التأكد من صدورها عن الشخص المنسوبة إليه تلك المقولة.

(71) سيفيد في هذا السياق أن نراجع ما كتبه حسن سلهب في كتابه (علم الكلام والتأريخ، إشكالية العقيدة في الكتابة التاريخية الإسلامية) نشرة مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2011.

120.indd 338 1/8/17 12:50 PM

والعينة التي نعمل عليها هي كتابات بعض الأتراك المقيمين في دولٍ عربية، مثل محمد القونوي احتشد الكاتب للتأليف ضد الصوفية فكتب في هذا الجانب مؤلفات عدة تعلن الخصومة على التصوف، فوصف كل ما لا يعجبه بـ(التصوف المنحرف) ورغب أن ينتقل محبو التصوف من هذا اللون الصوفي إلى (تصوف أهل الحديث والأثر).

خصص الكاتب تدين عدة مؤلفات الرومي والطريقة التي نُسبت إليه (المولوية):

- «المهول من نبأ من خدم المغول».

- «المنتخب من مناقب العارفين للأفلاكي في أخبار جلال الدين الرومي».

- «اللباب المعنوي في انتخاب المثنوي»،

«الهابط الغوي من معاني المثنوي».

- «البراهين المعنوية الأولية على فسوق المولوية الدنيوية».

- «أخبار جلال الدين الرومي».

بالإضافة إلى رحلة الإمام بدر الدين العيني إلى قونية، وغير ذلك من الرسائل التي انتخب فيها أقوالاً وجمعها لتدعم فكرته في إدانة التصوف.

لسنا بصدد تحليل ودراسة هذه المؤلفات وما ورد فيها من آراء مغلوطة، إذ تحتاج هذه المواد إلى مجموعة من المقالات أو تخصيص بحث موسّع لها، لكننا سنتناول مروية تتعلق بموقف الرومي من المغول، إضافة إلى بعض المرويات الأخرى، لنرى إن كان ما يقوله الكاتب له وجه من وجوه الصحة أم إنه انتقى من الروايات ما يخدم فكرته وترك الكثير مما ينزه الرومي عما قاله.

يروي محمد عبدالله أحمد (أبو الفضل القونوي) في كتابه (أخبار جلال

120.indd 339 1/8/17 12:50 PM

الدين) عن الرومي ما يجعل منه (موافقًا على كفر جنكيز خان وما يقرّبه من الخيانة والعمالة للمغول، وهي التهمة التي يلصقها السلفيون دومًا بأهل التصوف عامة مع اختلاف العصور)، ويخلط الكاتب بين ما يقوله جلال الدين بما يُقال عنه في السير بشكل أسطوري، ففي الفصل المعنون بـ(المغول وأهل الفتوة في الأناضول وعلاقة الجلال الرومي بهما) (ص72-104)، لن يعثر القارئ إلا على إحالة واحدة على نصّ للرومي ورد في كتابه النثري (فيه ما فيه)، عاد الكاتب فيه إلى الترجمة التركية، وسنقف عند هذا الكتاب لننقل للقارئ ما لم يشر إليه الكاتب؛ لتثبيت فكرته عن الرومي وإظهاره في صورة الخائن لأمة الإسلام! كما اعتاد مخاصمو الصوفية أن يفعلوا ذلك، متغافلين عما يُقال في الفقه ويؤكده التاريخ من تبني الفقهاء والعلماء من غير الصوفية لمبدأ (نحن مع من غلب)، (لا أقاتل في الفتنة، وأصلي وراء من غلب)، وهو ما تأثر به التيار السلفي حتى يومنا هذا، وقطاع كبير منه ينتصر للحاكم المتغلب بناء على هذه الفكرة.

لننتقل إلى ما يقوله مولانا جلال الدين الرومي بنفسه عن المغول، لا ما ترويه السير:

1- يستحضر مولانا جلال الدين قصة نبوية في الفصل الأول من «فيه ما فيه» [كلّ شيء من أجل الحق]، فيذكر في أسلوب قصصي بديع سبب نزول قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[72] في تعقيبه على شرحه لقول مأثور (شرّ العلماء من زار الأمراء، وخير الأمراء من زار العلماء، نعم الأميرُ على باب الفقيرِ، وبئس الفقيرُ على باب الأمير)[73]، وموجّهًا كلامه لمعين الدين سليمان بن مهذّب الشهير بـ(بروانه)[74] موبّخًا إياه قائلاً: «إنك في أول الأمر برزت بطلاً

(72) سورة الأنفال: الآية 70.

(73) نسب جلال الدين السيوطي هذا الأثر إلى النبي في (ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين).

(74) بالرغم من إعجاب بروانه بالرومي وحرصه على نيل صداقته، فإن هذا الإعجاب لم يحل دون توجيه مولانا سهام نقده إليه في كثير من المناسبات، ومنها السلوك غير المتسم بالاحترام، شأن معظم الحكام ممن أعمت كراسي الحكم بصائرهم. فمثلاً بينما كان مولانا يشترك يومًا في حلقة السماع، تبيّن إخلال بروانه بنظام الحلقة، فقال له مولانا: لقد سمعتُ عن طلبك العلم، وسماعك حديث رسول الله

120.indd 340 1/8/17 12:50 PM

للإسلام. إذ قلت: سأقدم نفسي فداءً، سأضحي بعقلي وتدبيري ورأيي من أجل بقاء الإسلام، وكثرة أهل الإسلام لكي يستمر الإسلام آمناً وقوياً.. ولكن عندما اعتمدت على رأيك ولم ترَ الحق، ولم تنظر إلى كل شيء على أنه من الحق، جعل الحق تعالى ذلك السبب والسعي نفسه سبباً لنقص الإسلام، فقد حالفت التتار، وقدمت لهم العون، لتفنيَ الشاميين والمصريين، وتخربَ دولة الإسلام، ولذلك فإن الله سبحانه جعل ذلك الذي كان سبباً لبقاء الإسلام سبباً لاضمحلاله، وفي هذه الحال، توجه إلى الله عزَّ وجلّ الذي هو محل الخوف، وتصدق لعل الله يخلصك من حال الخوف السيئة هذه، ولا تقطع الرجاء منه، بالرغم من أنه ألقاك من مثل تلك الطاعة في مثل هذه المعصية. رأيت أن تلك الطاعة آتية منكَ، فوقعت في هذه المعصية. والآن وأنت في هذه المعصية أيضًا لا تقطع الرجاء وتضرّع؛ فإنه تعالى قادرٌ، فقد أظهر من تلك الطاعة معصية، وهو قادرٌ على أن يُظهر من هذه المعصية طاعة. وهو قادرٌ على أن يعطيك الندامة على هذا الذي قدّمت، ويهيئ لك الأسباب لكي تسعى من جديد لكثرة المسلمين، وتكون قوّة للمسلمين، فلا تقطع الرجاء! (...) كان غرضي أن يفهم هذا، فيتصدق، ويتضرع. فقد انحدر من حال غاية في السمو إلى حال من الضعة[75].

نلاحظ في هذا النص توبيخ مولانا لمعين الدين بروانه واعتباره مخرّبًا لدولة الإسلام، لمحالفته للتتار واعتماده على تفكيره وتدبيره. ألا ترى مطالبة مولانا له بأن يتوب إلى الله اعتمادًا على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[76]، عسى أن يجدّ في العمل على تقوية دولة الإسلام، ويصلح ما أخطأ فيه.

2- في الفصل الخامس [عرائس الأسرار: ص108-111] وهو الفصل الذي

عند الشيخ صدر الدين، فقال بروانه: نعم. عندئذ أجابه: إذا كانت كلمة الله وأحاديث رسول الله لا تجدي معك، فما العمل؟! وفي الفصل العاشر من كتاب «فيه ما فيه» (ص74) يضجر معين الدين بروانه من عدم لقاء الرومي به، ويروي بروانه أن والد الرومي لم يكن يحبّ لقاءه أيضًا، وكان يتعلل بالانشغال قائلاً: «لا أرغب في أن يأتي الأمير في حالة لا أستطيع أن أكون فيها لطيفًا معه، وليس لديّ الفراغ لأن أعطه وأتجاذب أطراف الحديث معه».

(75) فيه ما فيه، لمولانا جلال الدين الرومي، ترجمة الأستاذ العاكوب، ص32.

(76) سورة يوسف: الآية 87.

120.indd 341 1/8/17 12:50 PM

اجتزأَ منه الكاتب ما أدان به مولانا، «يسأل أحدهم مولانا: يأخذ المغول الأموال، وبين الفينة والأخرى يعطوننا الأموال أيضًا. وهذا وضعٌ عجيب. ما حكمك على ذلك؟» فيجيبه مولانا ويبيّن له بمثال توضيحي كعادته، ويختم كلامه قائلاً: «وهكذا فإن مالنا حرامٌ عليهم، ومالهم حلالٌ لنا» [ليدقق من يرجو التحقيق في هذه الجملة]. في مثاله يشرح مولانا عمل الحق سبحانه وتعالى. وإذا كان الكاتب السلفي قد استبعد الرواية السابقة التي يظهر فيها الرومي موبّخًا الأمير لمحالفته للمغول؛ لأنها لا تخدم اعتقاده، وما أراد أن يوجّه القارئ إليه ليدين التصوف، فإن تعامله مع هذه المروية أيضًا جاء على نحو انتقائي، فانتخب منها ما أراد وترك ما يوضح رؤية الرومي للمغول.

لنقرأ نصًّاً آخرا للرومي جاء فيه:

«قال أحدهم: عندما جاء المغول لأول مرّة إلى هذه الولايات كانوا عراة ومجردين، كان مركوبهم الثيران وأسلحتهم من الخشب. أما في هذا الزمان فهم محتشمون وشبِعون، ولديهم خيول عربية مُطهّمة وأسلحة جيّدة.

قال مولانا: في ذلك الوقت، عندما كانوا منكسري القلوب وضعفاء ولا قوة لديهم أعانهم الله وأجاب دعاءهم. أما في ذلك الزمان الذي غدوا فيه محتشمين وأقوياء فإن الحق تعالى يهلكهم بأضعف الخَلق؛ لكي يعرفوا أنهم بعناية الحق ومدد الحق استولوا على العالم وليس بقوتهم وقدرتهم. في موطنهم الأول كانوا في صحراء، بعيدين عن الناس، لا حول لهم ولا قوة، مساكين، عراة، فقراء. من دون قصد، جاء بعض منهم تجاراً إلى ولاية خوارزمشاه وبدؤوا بالشراء والبيع، وكانوا يشترون الكرباس [ثوبٌ من القطن الأبيض] ليغطوا أجسادهم. وقد منعهم الخوارزمشاه، وأمر بأن يُقتل تجارهم، وأن يُؤخذ منهم الخراج أيضاً، ولم يأذن للتجار بأن يذهبوا إلى هناك. مضى التتار إلى مليكهم متضرعين، قائلين: «لقد هلكنا». طلب منهم ملكهم أن يمهلوه عشرة أيام، ودخل في كهف عميق؛ وهناك صام عشرة أيام. وأظهر الخضوع والخشوع. فجاء نداء من الحق تعالى: «قبلت ضراعتك وتوسلك. اخرج:

120.indd 342 1/8/17 12:50 PM

أينما ذهبت فستكون منصورًا». وهكذا كان. عندما خرجوا انتصروا بأمر الحقّ واستولوا على العالم.

وهذه هي الفقرة التي استبعدها الكاتب:

قال أحدهم: التتارُ يقرّون بالحشر، ويقولون بأنه سيكون هناك حسابٌ. قال مولانا: يكذبون، هم يريدون أن يجعلوا أنفسهم مشاركين للمسلمين (...) هذه المعاصي والمظالم والسيئات التي اقترفوها كالثلج والجليد تجمّعت طبقاتٍ فوق طبقات. وعندما تأتي شمس الإنابة والندم وأخبارُ الآخرية وخشية الله ستذيب ثلوج المعاصي تلك كلها مثلما تذيب الشمس الثلج والجليد.

علم الكاتب التركي بالنصوص السابقة، وعدم استشهاده بها في حديث الرومي والمغول، يظهر تعمده لإخفاء رأي الرومي في المغول وتوبيخه لمن يتعامل معهم من الأمراء. وعدم استشهاده بالفقرة الأخيرة التي يكذّب فيها الرومي التتار ويصف أفعالهم بـ(المعاصي والمظالم والسيئات) يجعل ما قاله في (ص104) من كتابه «أخبار جلال الدين» غير صحيح: «فها أنت ترى الجلال ينسب إلى الكافر جنكيز خان الوحي أو ما هو في معنى الوحي، والصيام والتضرع ولا يذكر شيئًا عن كفره ومظالمه».

ما مدى تأثير هذه الرواية السلفية وتلقيها من قبل الجمهور دون اختبار لصحتها؟

نقرأ للروائي محمد عبدالقهار عن اهتمامه بالتاريخ، ويظهر ذلك من خلال عمله الأدبي (سراي نامه: الغازي والدرويش)، وروايته (غارب) التي شكر بعد صدورها مجموعة من الأساتذة على معاونته في العودة إلى مصادر تاريخية كثيرة. لكن، نلاحظ أنه استشهد في إحدى مقالاته (دين الملحمة) بما أورده الكاتب السلفي مقتبساً إحدى مروياته في صورتها المنتخبة، محيلاً على النسخة العربية من كتاب «فيه ما فيه»، مما يعني إمكان مطالعته للنصوص السابقة وتعرفه عليها بسهولة.

120.indd 343 1/8/17 12:50 PM

ومن العجيب أن يحث هذا الشاب من خلال مقال كتبه بعنوان (هل نقرأ التاريخ) بعد صدور الرواية، على قراءة التاريخ دون الاعتماد على الوعظ أو الوقوع في حيز الإسقاط والتنبؤات، ويقع فيما أنكره على غيره!

يبقى سبيل التعرف على الرومي عند معظم التيار السلفي منحصراً فيما يردده الكاتب، وخير دليل على ذلك ما جاء في رواية الغازي والدرويش: «وهؤلاء الراقصون لا يزالون يُلهون الناس منذ زمن شيخهم الأكبر الرومي الذي رقص والمغول يخربون الأناضول، ورقص الناس معه ليهربوا من ألم الفواجع، وجلس البراوناه صنيعة المغول الذي حكم الأناضول باسمهم في مجلس الرومي يحاوره في الزهد والفناء». يحتفي الشباب بهذه الفقرة، ويشتركون في ترديدها دون التحقق من صحتها.

انتقلت المعلومة من السعودية إلى مصر، وما تزال تنتشر كالنار في الهشيم، كباقي المقولات التي تحمل وراءها ضغائن للرومي، ويستوي حامل المعلومة مع الجمهور في التلقي دون فحص أو اختبار، وكما أسهمت الكتابة المتحيزة في نشر صورة خاطئة للرومي، أسهمت الكتابة الأدبية كذلك كما رأينا في المثال السابق. كان هذا مثالاً على أنموذج مع التعامل مع مروية تاريخية واحدة تم اقتطاعها من سياقها لاتهام الرومي من خلالها. لنتابع مع نماذج أخرى.

1- ينقل أبو الفضل في (ص130) عن الأفلاكي مروية تتحدث عن شمس تبريزي وهو في بغداد، وللتنويه لا نعرف الكثير عن شمس، فبالرغم من آلاف الصفحات التي كُتبت عن الرومي، لم يُكتب عن شمس في كتب التاريخ أو الطبقات سوى النزر اليسير الذي يجعل سبيل التعرّف على شخصيته أمرًا خاضعًا للظن والتخمين، اللهم إلاّ إذا قرأنا كتابه (المقالات) الذي اكتُشف حديثًا، وحاولنا أن نلتقط منه أخباره كما يرويها بنفسه.

يقول الأفلاكي[77]: «بينما كان الشمس يمرُّ في بغداد بباب أحد القصور، إذا

(77) النقل عن مناقب العارفين للأفلاكي، النسخة التركية، والترجمة بقلم القونوي.

120.indd 344 1/8/17 12:50 PM

بصوت عَزْف يَطرُقُ مسامعه، فأراغ أن يستمع إليه شيئًا، فدخل القصر، فأشار سيد القصر الغافل عن سرّ هذه النشوة إلى عبده أن اضرب هذا الدرويش ليذهب. فاستل العبدُ سيفه وهجم عليه، لكن الفالج سرعان ما نزل بيده، فأمر عبده الآخر فجمدت يده في الهواء، وخرج الشمسُ من القصرِ وأخذ الطريق فلم يلحق به أحدٌ. وفي اليوم التالي رحل سيد القصر إلى الدار الآخرة»!

لم يلتفت أبو الفضل إلى إصابة شخص بالفالج، وتوقفت يده عن الحركة بشكل آلي، والآخر كذلك! إن هذا لو حدث بالفعل لجعل من كانوا يودون إيذاء شمس تبريزي يؤمنون به كما نقرأ في السير والتاريخ عن أمثال ذلك!

لكن القونوي علّق على الرواية مثبتًا إياها قائلاً: «هذا متطفلٌ يدخل البيوت بغير إذن أصحابها، وهو اعتداء، فما قوبل به الشمس لا يُلام صاحب القصر عليه؛ لأنه يدفع بذلك عن عرضه. وتأمّل قوله «فلم يلحق به أحد» فإني أخال أنه هرب بسرعة كبيرة، هروب الجناة المعتدين المتطفلين»[78].

2- قَبِل محمد القونوي مروية الأفلاكي التي تتحدث عن لقاء شمس بالرومي، وسفّه من حوار دار بينهما، كان الحوار مجال الحديث فيه عن عظمة حضرة النبي والإنكار على بايزيد البسطامي[79]، لكن القونوي تعمّد ألا يذكر شيئًا من ذلك، وركّز اهتمامه على المقطع الأخير في رواية الأفلاكي: «وأغلق عليهما باب حجرة فيها، وحرّم على أهل الدار أن يدخلها منهم أحد، إلا صلاح الدين زركوب، وبقيا في الحجرة

(78) السابق نفسه، ص72.

(79) يسأل شمس الدين التبريزي مولانا: (من الأعظم: أبو يزيد أم محمّد؟ فقال مولانا: ما هذا السؤال، محمدٌ خاتَمُ الأنبياء، فأية علاقة له بأبي يزيد؟ قال شمس الدين: ولكن لماذا يقول مُحمّدٌ: «وما عرفناك حقّ معرفتك»، وقال أبو يزيد: «سبحاني ما أعظم شاني»؟ فوقع مولانا من هيبة هذا السؤال وغاب عن الوعي، وعندما استعاد وعيه أخذ بيد مولانا شمس الدين...). راجع فروزانفر، ص103. وترد الرواية في كتاب شمس «مقالات»، وقد ذكرتها ليلي أنفار في كتابها (الرومي: دين الحبّ) وعلّقت عليها تعليقًا مفيدًا، راجع قراءة وترجمة عائشة موماد، المنشورة في الأوان، المقال الثالث، السبت 29 نوفمبر (تشرين الثاني) 2014 . ويعلّق عطاءُ الله تديّن على هذا اللقاء قائلاً: «صُنعت حكايات في شأن طريقة لقاء هذين الرجلين، والمقبول هو أن شمسًا في السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة 642هـ وصل إلى قونية، أما تاريخ لقاء الشخصين وكيفية هذه الواقعة فأمرٌ غير واضح». راجع (بحثًا عن الشمس، من قونية إلى دمشق)، ترجمة الأستاذ عيسى علي العاكوب، نشرة نينوى، دمشق، 2015، ص31.

120.indd 345 1/8/17 12:50 PM

ثلاثة أشهر وقيل ستّة[80]، لم يخرجا منها قط». يعلّق القونوي: «وهذا يعني أنهما قعدا عن صلوات الجماعة في المسجد وعن الجمعة»[81]! وزاد في هامش الصفحة أن شمسًا كان يؤخر الصلاة عن وقتها بغير قصد! لا مجال عند الكاتب للتأويل أو المجاز، فإن صحت الرواية ألا يمكن أن يكون معناها التزام الرومي بصحبة شمس، وأنه لم يكن ليترك فرصة للجلوس معه إلا والتزم بذلك.

3- يذكر الأفلاكي أن شمسًا طلب من الرومي شخصًا يخدمه، فقدّم مولانا زوجته كيرا خاتون لتخدمه، فرفض شمس وطلب غلامًا، فقدّم مولانا ابنه سلطان ولد ليخدم شمسًا، فطلب شمس من مولانا الخمر، فملأ مولانا إبريقًا من حيّ اليهود وقدّمه إليه، فأخبره شمس أنه كان يختبره وعقّب قائلاً: إنما فعلتُ ذلك لأعلم درجة حلمه وصبره، مضيفًا: إن عالم مولانا يضيق عنه نطاق الرواية لسعته.

منح القونوي الرواية دلالة جنسية مدينًا الرومي، فما يطلبه شمس يتعلق عنده بأن يتخذ غلامًا أو امرأة ليس للخدمة فحسب وإنما للمتعة! فعقّب على الرواية بشكل تهكّمي: «ونحن بهذا علمنا غيرته على حُرَمِه وفقهه في دينه»[82].

لم يلتفت القونوي إلى رواية مماثلة تدل على أن شمساً كان يختبر فعليًا الرّومي، على الرغم من إيراده لها -في بداية كتابه- لكنه انشغل عنها بإدانة الشخص المذكور أيضًا. يورد الأفلاكي الرواية على النحو التالي:

قال الشيخُ أوحدُ الدّين: «برغبة كاملة: أريد بعد اليوم أن أكونَ في خدمتك! قال: إنك لا تطيق صُحبتي. فجدّ الشيخُ وقال: اقبلني في صحبتك، أرجوك. قال: بشرط أن تشرب النبيذ معي على الملأ في وسط سوق بغداد. قال: لا أقدر على

(80) رواية الأفلاكي كما يذكرها العلامة فروزانفر في سيرة حياة مولانا جلال الدين الرومي تقول بأنه «أدخله إلى حجرة، ولمدة أربعين يومًا لم يسمح لمخلوق بالدخول»، راجع الترجمة العربية للأستاذ عيسى علي العاكوب، نشرة دار الفكر، دمشق، 2006، ص103. ولعل الكاتب نقل هذه المدة الزمنية عن عبدالرحمن الجامي في نفحات الأنس، فهو الذي حدد مدة الخلوة بثلاثة أشهر. قارن فروزانفر، السابق نفسه، ص104.

(81) السابق نفسه، ص138.

(82) أخبار جلال الدين، ص144-145.

120.indd 346 1/8/17 12:50 PM

ذلك. قال: تقدر أن تأتي لي بنبيذ خاصٍّ. قال: لا أقدر. قال عندما أشربُ تقدرُ أن تصحبني. قال: لا أقدرُ. فصرخ مولانا شمسُ الدين: انصرف عن الرجال». يُعلّق العلامة فروزانفر على الرواية قائلاً: وكان غرضه من هذا الكلام اختبار أوحد الدين في مقام التجريد والتفريد، الذي تتمثل حقيقته في مرحلة المعاملات في صرف النظر عن الخلق والتوجّه إلى الخالق بكمال الهمة وتمامها[83].

يمكننا أن نرى في الرواية أثرًا لحضور الخضر (العبد الصالح) مع موسى، ففي الرحلة التعليمية التي سجل القرآن وقائعها، كانت الحوادث التي تُعرض على النبي موسى (عليه السلام) بمثابة اختبار له، فما يبدو غير منطقيٍّ أو مخالفاً للتعاليم وأحدثه العبد الصالح، كان بمثابة درس لموسى عرف فيه الفارق بين فعل المخلوق وحكمة الخالق، ومن المعروف أن شخصية الخضر كانت حاضرة في التراث الصوفي والتفسيري والحديثي، فربما كانت هذه الشخصية حاضرة في مخيال كاتب الرواية التاريخية (الأفلاكي) -إن لم يتحقق لقاء شمس بالكرماني[84]- وربما كان شمس مستحضرًا لأنموذج الخضر، فهو نفسه كشيخ له علاقة بمريد أقرب إلى صورة الخضر التي يرسمها التراث الصوفي[85].

4- ذكر القونوي في كتابه مرويات عدّة عن سلطان ولد ابن مولانا، نقل جميعها عن الأفلاكي، مدينًا سلوكه من وجهة نظر المقولات السلفية[86]، لكنه أحجم عن ذكر مرويات لا يمكن تصديقها عقلاً، ربما لأن هذه المرويات تجعل من المصدر الذي يعتمده للتأريخ لحياة الرومي والمولوية مصدرًا غير موثوق في مصداقيته، سنذكر رواية واحدة من جملة هذه المرويات التي لا يمكن قبولها بأي حال من الأحوال.

يحكي الأفلاكي عن الفترة التي سبقت فِطام سُلطان ولد عن حليب أمه قائلاً:

(83) راجع: (من بلخ إلى قونية)، مرجع سابق، ص100-101.

(84) راجعت دراسة وترجمة إفراج أحمد أمين محمود الكفراوي لمناقب أوحد الدين الكرماني، نشرة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2011. فلم أعثر على رواية تثبت هذا اللقاء، وتعود الرواية إلى أفلاكي وجامي حسب تحقيق العلامة فروزانفر.

(85) للتعرف على أثر الخضر في التراث الصوفي الإسلامي، راجع: أبو الفضل بدران، الخضر في التراث العالمي، نشرة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2012، ص88-106.

(86) راجع القونوي، أخبار جلال الدين، مرجع سابق، ص208-213.

120.indd 347 1/8/17 12:50 PM

«كان سلطان ولد دائمًا ينام في حضن حضرة مولانا، وعندما كان يريد في التهجد أن ينهض ويقوم لصلاة قيام الليل، كان سلطان ولد يصرخ ويبكي، وعندئذ كان حضرة مولانا من أجل تسكينه يترك الصلاة ويضعه في حضنه. وعندما كان يطلبُ حليب أمه كان مولانا يضع ثديه المبارك في في وَلَد. وبأمر الله بسبب فرط حُنوّ الوالد كان يتدفق حليبٌ صاف «لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين» إلى أن يشبع من لبن ذلك الذي هو أسد المعنى وينام، مثلما انبثق الماءُ الزّلال من بين أنامل رسول الله»[87].

يضرب القونوي صفحًا عن مثل هذه المرويات[88] ولا يوردها في كتابه، ويركّز أكثر على ما يلتمس فيه مخالفة للعقيدة أو ما يقدح في السلوك، ويظهر الرومي في صورة غير أخلاقية. كذلك أغفل عن ذكر مرويات للأفلاكي تقدّم الرومي عالمًا محبًّا للفقه والشريعة، نذكر منها ما أورده الأفلاكي على لسان مولانا قائلاً: «كان الإمام أبو حنيفة النعمان والمطلبي (الشافعي) وأئمة آخرون (رضي الله عنهم) من صنّاع عالم الأرض الجذباء، من اتبع طريقهم بكلِّ صدقٍ واتخذ هؤلاء العقول العظيمة كقدوة، ظلَّ في مأمنٍ من شرِّ الخبثاء وتجّار الدين ونجا. لكن الجنيد وذا النون وبايزيد وشقيقاً البلخي وإبراهيم بن أدهم والمنصور (الحلاج) وأمثالهم، فهم طيورٌ مائية، سبّاحون عابرون لبحر الفكر، من اتبعهم نجا من مكر الهوى الخادع، وتقدم في طريقه نحو جوهرة بحر القدرة[89].

فروزانفر والأفلاكي

ثمّة تعامل مختلف مع مرويات الأفلاكي، يلاحظه من يطالع سيرة جلال الدين الرومي التي كتبها فروزانفر، فإلى جوار مصادره الكثيرة عن الرومي، نجد

(87) راجع: فرانكلين، الرومي شرقًا وغربًا، مرجع سابق، ص458.

(88) يبالغ الأفلاكي في نسبة كرامات لمولانا من باب التعظيم، فيتحدث عن فترة تعلّمه العلوم الشرعية، وهي أنه عندما كان مولانا أستاذا لعلوم التصوف بالمدرسة المقدمية بدمشق، وبينما كان في نزهة، ارتفع بجسمه في الهواء وسط دهشة تلاميذه الذين تحولوا إلى مريدين له منذ ذلك اليوم.

(89) راجع: Clément Huart, «De la valeur historique des mémoires des derviches tourneurs» dans «Journal asiatique», sér. 11, vol. 19, p. 308-317. Les saints des derviches Tourneurs. Récits traduits du persan et annotés (tr. of Aflāki [q.v.], Manāqeb al-ʿārefin), 2 vols., Paris، 1918–22. وأشكر الأستاذة عائشة موماد التي ترجمت لي بعض المواضع عن هذه النسخة والاقتباس المدرج أعلاه ص201.

120.indd 348 1/8/17 12:50 PM

حضورًا لمرويات الأفلاكي من بداية السيرة إلى منتهاها، فيذكر في مقدمة كتابه أنه أدرج أكثر مطالب هذا الكتاب في تضاعيف السيرة، حتى إن القراء بعد مطالعة كتاب فروزانفر ليسوا في حاجة إلى قراءة المناقب، ويقول: «وحيثما لزم الانتقادُ لم أُحجمْ عنه»[90].

ومن نماذج تعامله مع مرويات الأفلاكي، مناقشته للخصومة التي حدثت بين الفخر الرازي وبهاء ولد سلطان العلماء، فأغلب الكتّاب يؤكدون ذلك اعتمادًا على نقد بهاء ولد لطريقة الفخر الرازي المفسر، ومن المعروف أن الصوفية يعيبون طريقة الحكماء والفلاسفة ببيان شديد الوضوح، ويعدونهم منحرفين عن جادة الصواب، لإعلائهم من شأن العقل على الروحانيات، ومن كلام مولانا جلال الدين الرومي في هذا الشأن: «إن قدم الاستدلاليين من الخشب، والقدمُ الخشبية لا تمكين لها البتة». ومنه أيضًا: «ذو العقل يهرب من النملة الميتة حذرًا، وذو الحُبّ يدوس على التنين ولا يعبأ». وفي المثنوي يرد مشهد لمجادلة عائلية يكون فيها العقل هو الأب، وتكون فيها النفس الروح الدنيا، هي الأم. فالأم تريد أن تدلل طفلها الإنسان بإبقائه في البيت قريبًا من صدرها، لتجنبه كل أنواع المشاق في الحياة. أما العقل الأب فيعظها بأن ترسل الصبي إلى المدرسة من أجل إعداده لحياة شريفة. ويمثّل هذا المشهد الطريقة التي يتحدث بها معظم المتصوفين عن العلاقة بين العقل والنفس، الملكات الطبيعية الدنيا[91].

لم تكن هذه الإشارات بصارفة لفروزانفر من أن يتحقق من صدق رواية الأفلاكي، أن الفخر الرازي كان سببًا في هجرة والد مولانا من بلخ، فتعقّب روايات الأفلاكي عن الهجرة، ورأى أن أغلبها متعارض إلى حدّ أنه لا يمكن الجمع بين المرويات، وعقّب على ذلك قائلاً: «والظاهر أن الأفلاكي من أجل إثبات كرامة أسرة مولانا، وجَعلِها في غاية القرب في المقام الإلهي، بل في نهاية الاقتدار والاستطاعة في

(90) راجع: فروزانفر، مرجع سابق، ص29.

(91) راجع آنا ماري شيمل، العقل والتجربة العرفانية عند أهل التصوف، ضمن كتاب المناهج والأعراف العقلانية في الإسلام، تحقيق فرهاد دفتري، نشرة الساقي، بيروت، 2004، ص200-201.

120.indd 349 1/8/17 12:50 PM

عالم الكون والفساد والتصرف في الحوادث والأكوان، جمع هذه الروايات من دون مراعاة الترتيب التاريخي، وقد كتب الآخرون أيضًا في كتبهم مقلدين إياه. وبوجود روايات السابقين التي أيّدتها القرائنُ التاريخية قدر المستطاع، أرى أن السبب الرئيس لهجرة بهاء ولد من بلخ، إنما كان الخوف من سفك الدّماء والقسوة لدى جيش التتار»[92].

ويدعم فروزانفر رأيه بالاستناد إلى مصدر أكثر وثوقية في الحديث عن الرومي وأسرته، وهو سلطان ولد في مثنوي ولد نامه، إذ يجعل هجرة جدّه على إثر إيذاء أهل بلخ له، ومصاحبةً في الوقت نفسه لحملة المغول، ولا يذكر الفخر الرازي والخوارزمشاه.

لا يتوانى فروزانفر عن نقد مرويات الأفلاكي كلما وجدها غير مطابقة للأحداث التاريخية، ومخالفة لما يرد في المراجع التي يؤرخ لها المعاصرون للحدث، فنراه يعقّب مرة أخرى في حادثة هجرة عائلة الرومي على الأفلاكي قائلاً: «وغيرُ معلومٍ من أي مصدرٍ جمع الأفلاكي هذه الروايات، وعلى أي أساس جاء بها مخالفة لرواةً شيخه ومرشده، على الرغم من أن مثنوي ولد كان في حوزته، وكان هو نفسه ملازمًا لسلطان ولد وتلميذًا له»[93].

وتتكرر عبارات من مثل: «أخطأ الأفلاكي في أمر ...»[94]، وكذلك «رواية الأفلاكي محلّ إشكال»[95]، «ولا بد أن الأفلاكي يتصرف في كلامه بطريقة أخرى لكي لا يتناقض أول الرواية مع آخرها»[96]، وعبارات أخرى توضّح اختلاق الأفلاكي بعض المرويات من باب نشر الطريقة، من مثل: «يكون الأفلاكي قد أورد ذلك من

(92) راجع فروزانفر، مرجع سابق، ص45.

(93) نفسه، ص48.

(94) قارن السابق نفسه، ص51-53.

(95) راجع ص207-212.

(96) راجع ص209.

120.indd 350 1/8/17 12:50 PM

عنده»[97]، «ذلك أن الأفلاكي في أغلب هذه الأمور يسوق كلامًا خارجًا عن دائرة التحقيق، وهدفه في كتابه الترويج لطريقة المولويين وعقيدتهم»[98].

يتعامل فروزانفر على هذا النحو من التثبت مع مرويات الأفلاكي بعد عرضها على المصادر التاريخية، فإذا كان هناك ما يدعمها اعتمدها وأفاد منها لكتابة سيرة الرومي، وإن بدت مشكلة ناقشها، وإن كان هناك ما يعضدها من كلام الرومي نفسه تتأكد صحتها، ومن ذلك ما يسرده فروزانفر في الفصل الثامن عن (صورة مولانا وسيرته)، فكما تطلعنا رسائله المترجمة والمنشورة[99] نعرف أن الرومي كان محطّ أنظار ملوك الروم وأمرائهم، وكانت هذه الطبقة تتوق إلى لقائه، وكان يجالس -على الأكثر- الفقراء والمحتاجين، ويسعى دومًا لخدمتهم وتلبية احتياجاتهم، يفعل هذا الرومي في وقت كان يوصد بابه مرارًا كثيرة أمام الملوك. يتحدث فروزانفر عن أخلاق مولانا الرومي في المعاملات، ويستأنس بمروية للأفلاكي تدعم رفضه للأمراء، ويعقّب عليها قائلاً: وهذا الكلام تؤيده الإشارات الموجودة في كتاب (فيه ما فيه)[100]. وحينما نراجع كتاب (فيه ما فيه) النثري لمولانا، نعثر على ما يؤيد كلام فروزانفر، فالفصل الثالث من الكتاب، الذي يبدأ بالقول المأثور «شرّ العلماء من زار الأمراء، وخير الأمراء من زار العلماء، نِعم الأميرُ على باب الفقيرِ، وبئس الفقيرُ على باب الأمير» يشرح فيه مولانا لماذا لم يكن حريصًا على صحبة الملوك وزيارتهم، وفي الفصل السابع نشاهد صورة من ضجر معين الدين بروانه من عدم لقاء الرومي به، ويروي بروانه أن والد الرومي لم يكن يحبّ لقاءه أيضًا، وكان يتعلل بالانشغال قائلاً: «لا أرغب في أن يأتي الأمير في حالة لا أستطيع أن أكون فيها لطيفًا معه، وليس لديّ الفراغ لأن أعظه وأتجاذب أطراف الحديث معه»[101].

---

(97) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(98) راجع ص198.

(99) ترجم رسائل مولانا جلال الدين الرومي الأستاذ عيسى علي العاكوب؛ معتمدًا على نشرة توفيق هـ. سبحاني. ونشرتها دار الفكر، دمشق 2008.

(100) راجع: فروزانفر، مرجع سابق، ص225.

(101) راجع «فيه ما فيه»، لمولانا جلال الدين الرومي، ترجمة الأستاذ العاكوب، ص32.

120.indd 351 1/8/17 12:50 PM

لم يمنع تبنّي فروزانفر لخطاب الرومي ومحبته له أن يدقق في المرويات، ويستند إلى القرائن والبراهين التي تساعده في كتابة سيرة أقرب لما كان عليه قدر استطاعته، ولم تجعله محبته يكرر فعل الأفلاكي الذي بالغ كثيرًا في رسم صورة خيالية للرومي.

120.indd 352 1/8/17 12:50 PM